جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

الآليَّاتُ الحِجَاجِيَّةُ في العَتَبَاتِ التُّرَاثِيَّة
مُقدِّمَةُ (المُطَوَّلِ) للسَّعْدِ أنْمُوْذَجًا

إعداد

د/ سلمان بن محمد بن حسن القرني

أستاذ البلاغة والنقد المشارك

كلية العلوم والآداب بالمخواة - جامعة الباحة

(العدد السادس والثلاثون)

(الإصدار الثاني .. مايو)

(١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م)

علمية- محكمة- ربع سنوية

الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

الآليَّاتُ الحِجَاجِيَّةُ في العَتَبَاتِ التُّرَاثِيَّة مُقدِّمَةُ (المُطَوَّلِ) للسَّعْدِ أنْمُوْذَجًا

سلمان بن محمد بن حسن القرني

قسم البلاغة، كلية العلوم والآداب بالمخواة، جامعة الباحة، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكترونيdrsm1433@gmail.com

الملخص:

تأملُ هذه الدراسةُ قراءةَ مقدمةِ كتابِ المُطوَّلِ لسعدِ الدينِ التفتازاني قراءةً حِجاجية، بوصفِ مقدمات المصنَّفات من العَتَبَاتِ النَّصيَّة، التي تنقل مركز التَّلقي من المتن إلى العَتَبَة، وبوصفِ الحِجاج من المناهج اللُّغويةِ الحديثة التي تقارب النصوص، وتحاول استكشافها، ولقد اعتمدتْ مُقدِّمةُ المُطَوَّل على آلياتٍ حجاجية، وتقنياتٍ إقناعية وظَّفها السعدُ في سبيل خدمة مقاصده وأغراضه، وتسعى الدراسة إلى استجلاء تلك الآليات، وبيان حركيتها الحجاجية، كما تحرصُ الدراسةُ على إقامةِ مواءمة بين البلاغة العربية والدرس الحِجاجي، وذلك من خلال مفاصل البحث الذي انقسم إلى مقدمة، وبادئة في البعد النظري للمفاهيم، وثلاثة مطالب جُعِلَتْ مفاتيح إجرائية للدراسة الحجاجية وهي: ترتيب أجزاء القول، والسلم الحجاجي، والأساليب البلاغية، والمرجو أن يتناول البحث الآليات والأدوات التي دعمت الحجاج ودفعت به في مقدمة (المطوَّل)، دون أن نتعمق في لسانيات الحجاج ومدارسه واتجاهاته، فإنَّ لها مجالًا آخر، ومن هنا كان سؤال البحث المحوري هو: إلى أيِّ مدىً أسهمت الآليات الحجاجية التي وردت في مقدمة كتاب المطول في تحقيق الغاية التأثيرية الإقناعية؟ ثم تفرعتْ عن هذا السؤال عدةُ تساؤلات منها: ما أنماط تلك الآليات الحجاجية؟ كيف عملت على توجيه القول نحو وجهة محددة؟ وما دور الأساليب البلاغية في إبراز الحجج والنتائج التي تساعد المتلقي على استقبال الخطاب.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، الحِجَاج، العَتَبَات، المطوَّل، المقدِّمة.

Argumentative mechanisms in the heritage thresholds Introduction (The lengthy) of Al-Saad as an example

Salman bin Mohammed bin Hassan Al-Qarni
Department of Rhetoric, College of Science and Arts in Al-Makhwah, Al-Baha University, Kingdom of Saudi Arabia.
Email: drsm1433@gmail.com

Abstract:
The current study aims to investigate the introduction to Introduction to (Al-Mutawwal) by Alsaad Al-din Al-Tetazani, argumentative reading, describing the introductions of the textual thresholds volumes, that transfer the center of reception from the text to the threshold, and describing the arguments from the modern linguistic approaches that approach and try to explore the texts .The Introduction to (Al-Mutawwal) relied on argumentative mechanisms and persuasive techniques used by Al-Saad in order to serve his purposes and objectives, the study seeks to clarify these mechanisms and demonstrate their argumentative dynamics, the study is also keen to establish harmonization between our Arabic rhetoric and the argumentative lesson, through the research's content, that is divided into an introduction, a preamble in the theoretical dimension of concepts, and three requirements that are procedural keys to the argumentative study: the order of the speech parts, the argumentative ladder, and the rhetorical approaches.

Keywords: Rhetoric , Arguments , Thresholds , Al-Mutawwal , Introduction.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة:

الحمدُ للهَ الكريمِ الوهَّاب، والصلاةُ والسلامُ على من أُوتيَ الحكمةَ وفصلَ الخطاب، وخصَّهُ المولى بأفضلِ كتاب، وبعد:

فإنَّ دراسة الخطابَ المقدماتي فرعٌ بِكْرٌ من الدراسات اللغوية الحديثة التي نشأت مع تطور البحث اللغوي واللساني، بل إنَّ هذا الخطاب يُعَدُّ نَصًّا موازيًا، أو نصًّا مُصَاحِبًا كما هو الحال في العنوان والإهداء والمقدمة، تلك التي عُرفت بـ (العَتَبَات النَّصِّيَّة)، وباتتْ دراستها من الفتوحات الجديدة التي تنبِّه إلى كل ما يحيط بالعمل الأدبي مما يمكن أن يسهم في توجيه النمط الإبداعي، والأسلوب التأليفي لدى المؤلفين[1].

وتتغيَّا هذه الدراسة مفاتشة خطاب المقدمات في الإرث العلمي البلاغي، وما يكتنزه من مظاهر حجاجية، وآليات إقناعية، وكتاب (المطول) لسعد الدين التفتازاني –رحمه الله تعالى– أحد تلك المؤلفات التي تنتمي إلى عائلة المدوَّنة البلاغية، التي اهتمت بشرح كتاب تلخيص المفتاح للخطيب القزويني رحمه الله تعالى، وهي التي عرفت بشروح التلخيص.

والمطول وغيره من شروح التلخيص جزء مهم من التراث البلاغي الذي أهملته بعض الدراسات المعاصرة، وتوقفت عند الإمام عبد القاهر باعتباره صاحب مفاهيم التأسيس النظري[2].

---

١ ينظر: الروابط الحجاجية في الخطاب المقدماتي غريب الحديث للخطابي نموذجًا، ياسر رضوان، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، العام الثامن، ع٦٩، ٢٠٢١م، (٢٤).

٢ مبادئ تحليل الخطاب في التراث البلاغي العربي من خلال شروح التلخيص، محمود طلحة، كنوز المعرفة، عمان الأردن، ط١، ٢٠١٩م، (٤٥).

لقد ارتأت الدراسةُ أن تدرس الحجاج في الخطاب المقدماتي في (مطول السعد)، باعتبار (مقدمةِ) هذا الكتابِ عتبةً من تلك العتبات، وباعتبار الحِجاجِ عاملًا حيويًّا، له حركتُهُ الحيويَّةُ التأثيريةُ في تكوين المعاني، من خلال تشكيل المباني، ولذا فإن أهمية دراسة العتبات في كونها تنقل مركز التلقي من متنه إلى عتباته[١].

لقد احتوت مقدمة (المطول) على خطاب حجاجي مميز، بناه السعدُ ليقيم في قلب وفكر متلقيه الإقناعَ والتأثيرَ بهذا الخطاب، ويحدث في قارئه الإيمانَ والتصديقَ بأهمية هذا الكتاب، واصفًا رحلته منذ أن كان التأليفُ فكرةً تراوده، حتى استوى على سُوْقِهِ يُعجبُ القُرَّاء.

وتجتهد الدراسة في إقامة جسور تواصل بين بلاغتنا العربية من جهة؛ والدرس الحجاجي من جهة أخرى، إنها محاولة لربط إرثنا المعرفي بما توصل إليه الدرس اللغوي الحديث.

ومقدمةُ الكتب هي ذلك الفعل الافتتاحي الذاتي الذي ينتج به الباثُّ خطابًا قائمًا برأسه، مشبعًا برؤيته التي تهيئ المتلقي لتقبل العمل، والولوج القويم إلى عالم النص المعني، وهي المكان الأمثل الذي يمكن للباث أن يستثمره بغية تبيين دوافعه، وتحديد مقاصده، وذكر منهجه وخطته، وعرض ملابسات إنتاجه، فالمقدمة تضع أمام المتلقي ركائز يمكن أن يستند إليها في استنطاقه النص، فتساعده على تأويل النص، والوقوف على حيثياته.

إضافة إلى أن المؤلف يتوخى من هذا المنجز تمرير أفكاره لاستمالة المتلقي، فتصبح المقدمة نصًّا متعالقًا مع النَّص المؤلَّف، وحاملًا للعديد من

١ ينظر: مفهوم مصطلح العتبات النصية، خالد سريان الحربي، فكر وإبداع، رابطة الأدب الحديث، ع١٣٠، ٢٠١٩م، (٢٩١).

القرائن الموجهة للقراءة، والمساعدة على الفهم والاستيعاب[1]. ومن المفارقة أن تكون المقدمة –غالبًا– أول مقروء، وهي آخر مكتوب.

والمرجو أن يتناول البحث الآليات والأدوات التي دعمت الحجاج ودفعت به في مقدمة (المطوَّل)، دون أن نتعمق في لسانيات الحجاج ومدارسه واتجاهاته، فإنَّ لها مجالًا آخر.

إنَّ القوة الإنجازية لرسالة العتبة هي الأثر الذي يسعى المؤلف لإحداثه في متلقيه، والغاية التي من أجلها تشكَّلت العتبة بذلك المظهر الوظيفي بحيث تعرِّفنا بقصد وتأويل المؤلف[2].

ومن هنا كان سؤال البحث المحوري هو: إلى أيِّ مدىً أسهمت الآليات الحجاجية التي وردت في مقدمة كتاب المطول في تحقيق الغاية التأثيرية الإقناعية؟ ثم تفرعتْ عن هذا السؤال عدةُ تساؤلات منها:

ما أنماط تلك الآليات الحجاجية؟ كيف عملت على توجيه القول نحو وجهة محددة؟ وما دور الأساليب البلاغية في إبراز الحجج والنتائج التي تساعد المتلقي على استقبال الخطاب.

الدراسات السابقة:

لم يعثر الباحث على دراسة تختص بالحجاج في مقدمة (المطول)، وأما الدراسات الموازية التي تناولت حجاجية العتبات فمنها:

١- حجاجية العنوان والمقدمات في كتب التصويب اللغوي، براء علاء- هادي شندوخ، مجلة الأطروحة علوم اللغة العربية وآدابها، مج٤ ع٧، ٢٠١٩م.

---

١ ينظر: تحليل الخطاب المقدماتي مقدمة مغني اللبيب لابن هشام أنموذجًا، ليلى بايزيد، مجلة الأثر، ع٢٧، ٢٠١٦م. (٢٣٠).

٢ ينظر: تحليل الخطاب المقدماتي مقدمة مغني اللبيب لابن هشام أنموذجا (٢٩٣).

٢- عتبات النص التراثي، مقاربة في عتبة المقدمة، سعيدة تومي، مجلة تاريخ العلوم، العدد التاسع، سبتمبر ٢٠١٧م.

منهج الدراسة:

تضطلع النظرية الحجاجية بإجراءات محددة تهدف إلى بيان حجاجية النصوص، ويتكئ هذا البحث على المنهج التحليلي الوصفي الذي من شأنه أن يستكشف أدوات وأساليب الخطاب ووسائل الإقناع في المادة مناط الدراسة، مع التأكيد على أنَّ البحث سوف يولي اهتمامه وتركيزه على الآليات الواردة في المقدمة، وكيفية توظيفها في الحجاج، إذ ليس من شأن الدراسة أن تفصِّل القول في آليات الحجاج المتنوعة، ودون أن يتمدد البحث في فضاء التحليل البلاغي الذي لا يخدم الدرس الحجاجي بالضرورة.

خطة البحث:

بالتأمل في المقدمة مناط البحث، وطبيعتها، ومادتها الحجاجية؛ فقد ارتأيت أن تُقَسَّمَ الدراسة إلى مقدمة، وبادئة، وثلاثة مطالب، ثم الخاتمة والتوصيات.

فأما المقدمة فهي التي نحن فيها. وأما البادئة فكانت في التعريف بالسعد وكتابه (المطوَّل)، ثم الإطار النظري حول مفهوم الحِجاج والعَتَبَات. وأما المطالب الثلاثة فهي في الإطار الإجرائي الذي انقسم إلى ما يأتي:

المطلب الأول: ترتيب أجزاء القول.

المطلب الثاني: السلم الحجاجي.

المطلب الثالث: حجاجية الأساليب البلاغية.

وأخيرًا جاءت الخاتمة، وسجَّلتُ فيها أهم النتائج والتوصيات.

البادئة: في الإطار النظري

١- التعريف بالسعد وكتابه (المطوَّل)

٢-تحرير مفهوم الحِجاج والعَتَبَات

١-١-التعريف بالسعد:

السعد التفتازاني هو مسعود بن عمر بن عبد الله الملقب بسعد الدين التفتازاني، وُلِدَ بتفتازان من بلاد خراسان عام ٧١٢هـ، وأقام بسرخس، وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند، كانت في لسانه لكنة[١].

يقول عنه الجلال السيوطي: " مَسْعُود بن عمر بن عبد الله الشَّيْخ سعد الدّين التَّفْتَازَانِيّ الإِمَام الْعَلامَة. عَالم بالنحو والتصريف والمعاني وَالْبَيَان والأصلين والمنطق وَغَيرهَا، شَافِعِيّ. قَالَ ابْن حجر: ولد سنة ثِنْتَيْ عشرَة وَسَبْعمائة، وَأخذ عَن القطب والعضد، وَتقدم فِي الْفُنُون، واشتهر ذكره، وطار صيته، وانتفع النَّاس بتصانيفه.

وَله: شرح الْعَضُد، شرح التَّلْخِيص - مطول، وَآخر مُخْتَصر - شرح الْقسم الثَّالِث من الْمِفْتَاح، التَّلْوِيح على التَّنْقِيح فِي أصُول الْفِقْه، شرح العقائد، الْمَقَاصِد فِي الْكَلَام، شَرحه، شرح الشمسية فِي الْمنطق، شرح تصريف الْعزي، الْإِرْشَاد فِي النَّحْو، حَاشِيَة الْكَشَّاف لم تتمّ. وَغير ذَلِك. وَكَانَ فِي لِسَانه لكنة، وانتهت إِلَيْهِ معرفَة الْعُلُوم بالمشرق. مَاتَ بسمرقند سنة إِحْدَى وَتِسْعين وَسَبْعمائة"[٢].

---

١ ينظر: الأعلام، خير الدين بن محمود الزركلي (ت١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م، (٢١٩/٧).

٢بغية الوعاة بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان، صيدا، د ط، د ت، (٢/ ٢٨٥).

وقال ابن خلدون في مقدّمته: "ولقد وقفت بـ"مصر" على تآليف متعدّدة لرجل من عظماء "هراة" يشهر بـ"سعد الدين التفتازاني"، منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان، تشهد بأنّ له ملكة راسخة في هذه العلوم، وفي أثنائها ما يدلّ على أنّ له اطّلاعاً على العلوم الحكمية، وقدماً عالية في سائر الفنون العقلية"[١].

وترجم له ابن الغزي، ووصفه بأنه: " الإمام العالم العلامة المحقق المدقق البليغ"[٢].

واختلفوا في تاريخ وفاته، والأكثرية أنها كانت في عام ٧٩٢هـ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

٢-١- <u>التعريف بكتاب (المطول):</u>

كتاب (المطوَّل) من أهم شروح تلخيص المفتاح للخطيب القزويني (٧٣٩هـ)، والذي هو تلخيص للقسم الثالث من كتاب (مفتاح العلوم) لسراج الدين يوسف السكاكي (ت:٦٢٦هـ) والمتعلق بعلم البلاغة.

ولعل (المطول) أشهر تلك الشروح، وأوسعها انتشارًا وقبولًا؛ حيث اشتغل العلماء به ووضعت عليه الشروح والحواشي.

وقد بدأ السعد شرحه بخوارزم سنة ٧٤٢هـ، وله وقتها من العمر قرابة الثلاثين، ثم فرغ منه بهراة سنة ٧٤٨هـ، ويقال إن السلطان تيمورلنك علق الكتاب

---

١ تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ – ٨٠٨ هـ)، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م، (١٣٣/١).

٢ ديوان الإسلام، شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي (ت ١١٦٧هـ)، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١١هـ ١٩٩٠م، (٢٤/٣).

على باب قلعة هراة، واشتهر الكتاب وكثرت نسخه وقد طبع بالقسطنطينية سنة ١٢٦٠هـ ثم في لكنو وطهران ودهلي ثم تكرر طبعه، وقد تلقى العلماء هذا الشرح بالقبول التام، والاهتمام البالغ، وأولوه عناية فائقة، فدرسوه ووضعوا عليه الحواشي[١].

٢-تحرير مفهوم الحجاج والعتبات:

١-٢-مفهوم الحجاج:

الإطار اللغوي:

جاء في (اللسان): " الحُجَّة البُرْهان، وقيل: الحُجَّة ما دُوفِعَ به الخصم، وقال الأَزهري: الحُجَّة الوجه الذي يكون به الظَّفَرُ عند الخصومة، وهو رجل مِحْجاجٌ أَي: جَدِلٌ، والتَّحاجُّ التَّخاصُم، وجمع الحُجَّةِ حُجَجٌ وحِجاجٌ، وحاجَّه مُحاجَّةً وحِجاجًا نازعه الحُجَّةَ، وحَجَّه يَحُجُّه حَجّاً غلبه على حُجَّتِه "[٢].

يقولُ الجرجانيُّ صاحبُ (التعريفات):" الحُجَّة: ما دُلَّ به على صحة الدعوى، وقيل الحجة والدليل واحد "[٣].

أما ابن فارس فيقول في (مقاييس اللغة): "حاججت فلانًا فحجَجْته، أي: غلبتُه بالحجّة، وذلك الظّفرُ يكون عند الخصومة، والجمع حُجَج، والمصدر الحِجَاج"[٤].

---

١ ينظر: حاشية السيالكوتي على المطول، عبد الحكيم السيالكوتي، تح: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، (٨٩).

٢ لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط١، د ت. (مادة حجج)، (٢٢٨/٢).

٣التعريفات، علي محمد الجرجاني(٨١٦هـ)، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، د ط، د ت، (٨٢).

٤ مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د ط، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. (مادة حجَّ)، (٣٠/٢).

نخلص من هذا إلى أن الحجاج يدل في معناه اللغوي العام على محاولة الإقناع والتأثير في المتلقي، والغلبة، والمنازعة، التي تكون بين طرفين، يحاول المتكلم التأثير في الآخر باعتماد أسلحة الحجة والدليل والبرهان.

المعنى الاصطلاحي:

تُقدِّمُ الدراساتُ اللغوية الحديثة الحجاجَ على أنه جملة من الأساليب تقوم بوظيفة حمل المتلقي على الاقتناع بما يُعرض عليه.

بينما يقول أبو بكر العزاوي: "إن الحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب"[١].

ويُعرِّفه طه عبد الرحمن بأنه: " كل منطوق به، مُوجَّه إلى الغير، لإفهامه دعوى مخصوصة، يحق له الاعتراض عليها"[٢].

إذًا فالخطاب الحجاجي هو خطابٌ مدارُهُ قولٌ للإقناع، يتوسل بتقنيات معلومة.

٢-٢- مفهوم العتبات:

الإطار اللغوي:

العَتَبَةُ في اللغة: "أُسْكُفَّةُ البابِ الَّتِي تُوطأُ... وَالْجَمْعُ: عَتَبٌ وعَتَباتٌ. والعَتَبُ: الدَّرَج...وعَتَبُ الدَّرَجِ: مَراقِيها إذا كَانَتْ مِنْ خَشَب؛ وكلُّ مِرْقاةٍ مِنْهَا عَتَبةٌ"[٣]،وهذا يعني أن العتبة بداية دخول المنزل، وهي –كذلك–صلةٌ بين مكان منخفض، ومكان مرتفع لا يوصل إليه بدونها. يقول ابن فارس: إنها سميت عتبة

١ اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م (١٦).

٢ اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، (٢٣١).

٣ لسان العرب، (مادة عَتَبَ)، (٥٧٦/١).

"لارتفاعها عن المكان المطمئن السهل"[1]. وهنا تتفق الدلالة اللغوية للعتبات مع دلالتها الاصطلاحية في الدرس اللغوي؛ حيث أضحت تلك النصوص الموازية وتلك العتبات ذات دور حيوي في قراءة ما يليها من المتن، هذه القراءة التي "تصير مشروطة بقراءة هذه النصوص، فكما أننا لا نلج فناء الدار قبل المرور بعتباتها؛ فكذلك لا يمكننا الدخول إلى عالم المتن قبل المرور بعتباته"[2].

المعنى الاصطلاحي:

إذا كان النقاد والباحثون قد اختلفوا في تحديد مصطلح العتبة النصية فهم يتقاربون في تعريفها، فيعرفها محمد بنيس بأنها تلك "العناصر الموجودة على حدود النص، داخله وخارجه في آن، تتصل به اتصالًا يجعلها تتداخل معه إلى حد تبلغ فيه درجة من تعيين استقلاليته، وتنفصل عنه انفصالًا يسمح للداخل النصي، كبنية وبناء، أن يشتغل وينتج دلاليته"[3]. ويعرفها آخرون بأنها "عبارة عن نصوص مجاورة ترافق النص في شكل عتبات وملحقات قد تكون داخلية أو خارجية"[4]، وتشمل: اسم المؤلف، العنوان، العنوان الفرعي، الميثاق، اسم السلسلة، اسم الناشر، تاريخ النشر، **المقدمة**، التذييل، كلمة الغلاف، الإهداء.

وتُعَدُّ المقدمة أو خطبة المؤلف من عتبات المؤلِّف المحيطة التي تعود مسؤوليتها للمؤلِّف، وذلك لأن العتبات –في الجملة– تنقسم إلى:

---

١ مقاييس اللغة، (مادة عَتَبَ)، (٢٢٥/٤).

٢ مدخل إلى عتبات النص دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، عبد الرزاق بلال، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ٢٠٠٠م، (٢٣).

٣ الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاتها، محمد بنيس، دار توبقال، الدار البيضاء المغرب، ط٢، ٢٠٠١م، (٧٦).

٤ لماذا النص الموازي، جميل حمداوي، مجلة الكرمل، فلسطين، ع٨٨، ٢٠٠٦م. (٢٢٠).

١- عتبات النص الموازي النشري، تلك التي تحيط بالعمل كالغلاف وصفحة العنوان وكلمة الناشر.

٢- عتبات النص الموازي التأليفي، كالعنوان نفسه، والإهداء، **والمقدمة**[١].

المطالب الإجرائية:

المطلب الأول: ترتيب أجزاء القول

إنَّ ترتيبَ مُكوِّنات القول وإصابة كل جزء منها موضعه المناسب مطلبٌ يسعى الخطابُ الرشيد إلى تحقيقه؛ حيث يكتسب هذا الترتيب بُعدًا وظيفيًّا يرتبط بالوسائل والأغراض، وذلك لأنَّ "الكلام يتضمن جزئين، إذ لابد من ذكر الموضوع الذي نبحث فيه، ثم بعد ذلك نقوم بالبرهنة، ولهذا فمن المستحيل بعد ذكر الموضوع أن نتجنب البرهنة.. ذلك أنه حين نبرهن إنما نبرهن على شيء، ولا نذكر الشيء إلا من أجل البرهنة عليه، وأُولى هذه العمليات هي العرض، والثانية الدليل، وهذا يفضي إلى وضع تفرقة بين المسألة وبين البرهان"[٢].

وقد ترتبت مقدمة (المطول) على ثلاثة أقسام وهي: الاستهلال، العرض، الخاتمة. وهذه الأعمدة الثلاثة في (المقدمة) تنطوي على علاقات توالدَ بعضُها من بعض، أي ميلاد اللاحق من السابق، إذ هو نتيجة سببية منه، يشهد على ذلك التوالد تتبعُ حركة المعنى في هذه (المقدمة) من صدرها إلى خاتمتها.

ويشكِّل قسم الاستهلال وقسم الخاتمة الكتلة العاطفية البارزة، والتي تخاطب الشعور، كما يشكِّل قسم العرض الكتلة البرهانية البارزة، التي تخاطب

١ ينظر: مفهوم مصطلح العتبات النصية (٢٩٧).

٢ الخطابة، أرسطو، حققه وعلَّق عليه عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات الكويت، دار القلم بيروت،١٩٧٩م، (٢٢٨، ٢٢٩).

العقل وتستهدفه بالإقناع[1]، وإنْ كانت الأجزاء الثلاثة –بصفة عامة– لا تخلو من تعاور تلك الوظائف. ويمكن تمثيل هاتين الكتلتين بهذا الشكل:

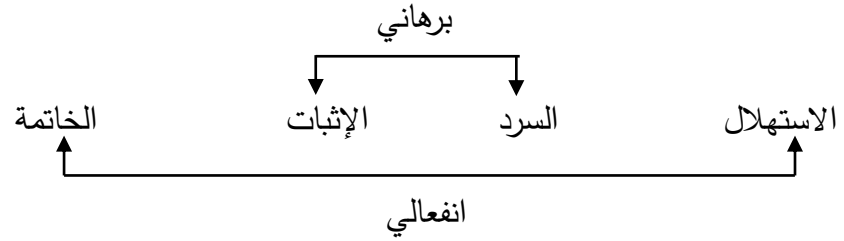

الاستهلال:

يتعلق الاستهلالُ بالتصدير والبدء، وأول القول، يقال: استهلَّت السماءُ إذا كان أول مطرها[2]، وهو يتنزل من الكتابة منزلة الوجه والغُرَّة[3]، ومن هنا كانت عناية العرب القدامى بأهمية الاستهلالات وفواتح الكلام، وأولوها عناية فائقة إذ هو البادئة التي يُفتتح بها، وتشير إلى وجهة الكلام ومقاصده؛ " إيمانًا منهم بقوة الأثر الأوَّل في النفس، وأنه يدفع السامع إلى التنبه والإصغاء إن كان جيّدًا آسرًا، وإلى النفور والانصراف إن كان ضعيفًا فاترًا"[4].

١ ينظر: الحجاج في الخطابة النبوية، عبد الجليل العشراوي، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط١، ٢٠١٢م، (١٥٩).

٢ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣هـ)، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.، مادة هلل، (١٥٢/٥).

٣ منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني(٦٨٤هـ)، تح: محمد الحبيب بن خوجة، دار الكتب الشرقية. د ط، د ت، (١٠٠).

٤ أسس النقد الأدبي عند العرب، أحمد بدوي، نهضة مصر، القاهرة، ط٦، ٢٠٠٣م، (٢٩٧).

وقد نقل العسكري عن بعض الكُتَّاب: "أحسنوا معاشرَ الكُتَّاب الابتداءات؛ فإنَّهنَّ دلائلُ البيان"[١].

يقول الجاحظ: "وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته... فإنه لا خير في كلام لا يدل على معناك، ولا يشير إلى مغزاك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزعت"[٢].

ويقول حازم عن حسن الاستهلالات: "ربما غطَّتْ بحسنها على كثير من التَّخَوّنِ الواقع بعدها إذا لم يتناصر الحُسْنُ فيما وليها"[٣].

وإنَّ أوَّلَ ما استهلَّ به السعدُ كتابَهُ قولُهُ: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، الحمد لله الذي ألهمنا حقائق المعاني ودقائق البيان، وخَصَصَنا ببدائع الأيادي وروائع الإحسان، أتقّن بحكمته نظام العالم على وفق ما اقتضته الحال، وأورد برأفته فرق الأنام في طرق الإنعام والإفضال؛ والصلاة على نبيه محمد خير من نبع من ضئضئ الكرم والسماحة وأشرف من نبغ من دوحة اللَسن والفصاحة؛ وعلى آله وأصحابه الذين بهم تلألأ غرة الحق وأشرق وجه الدين، واضمحل دجى الباطل ولمع نور اليقين"[٤].

---

١ الصناعتين، (كتاب) الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، ت ٣٩٥هـ، ت: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م، (٤٣٠).

٢ البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ)، تح: فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ط١، ١٩٦٨م، (١/١١٤).

٣ منهاج البلغاء (١٠٠).

٤المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، ت٧٩٢هـ، ت: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العالمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م، (١٢٥).

والناظر في هذا الاستهلال يجده أُفْتِتحَ بالبسْمَلَة، ثم الحمْدَلَة، وإلى جانب ما في البدء بالبسملة من التبرك والتيمن فهو ينطوي على قيمة حجاجية بارزة، وهي التسلح بسلطة الأثر الديني، ذلك الأثر الذي يقف عنده كل مسلم مُتَلَقٍ للعمل الذي يُلقى إليه، ومن ثم كان البدء بالبسملة؛ ليضع المتلقي منذ اللحظة الأولى أمام قدسية القول، تلك القدسية التي تتخذ أحقية الاقتناع بها من خلال ما تمثله من مرجعية دينية، لا يختلف عليها أحد، وهي مرجعية ذات سلطة تؤدي "دورًا رئيسًا في إنتاج الخطاب وتأويله، كما أنها تمنحه قوته الإنجازية"[1].

ولا تقف حجية هذا الاستهلال عند التماس البدء بشريف الكلام، وإنما نراه يتلمس كل وسيلة من شأنها الإعانة على تحقيق الإقناع، وذلك بتكثيف سلطة الخطاب الديني عن طريق إرداف البسملة بالحمدلة ثم الصلاة والسلام على النبي، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، في صورة من صور ترتيب أجزاء القول، ومن ثمة ترتيب المقدمات الحجاجية التي تترتب عليها نتائجها[2].

ومما يعد من وسائل جذب المتلقي ما فعله السعد في استهلاله السابق حين استدعى ما يناسب المقام فأورد مفردات تنبئ عن وجهته، وموضوع كتابه، وهي قوله: (المعاني، البيان، اللَّسن، الفصاحة، اقتضاه الحال)، وهذه المفردات لا تمر على المتلقي دون أن يتوقف عندها، فهي مثيرات تحفزه، وتوقظ فيه الإحساس، إذ تنبئ –مُبكِّرًا– عن موضوع الكتاب المُصَنَّف، وهو علم البلاغة؛ وذلك لعظيم ارتباط هذه المفردات بذلك العلم.

١ استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م، (٢٢٠).

٢ ينظر: الروابط الحجاجية في الخطاب المقدماتي (٢٦).

إنَّ إدراج هذه المفردات البلاغية في مقدمة (المطول) يؤكد المقولة التي تقول بأنَّ خطاب المقدمات يمثل وثيقةً حول الجنس الأدبي[١]، ترتبط ارتباطًا بالنص، فهي فعل حجاجي مبكر، يضطلع بوظيفة توجيه المتلقي، واستدراجه، وتهيئته لمواجهة النص.

العرض:

ينسلُّ كلامُ السعد من مستهله إلى عرضه فيقول: "وبعد: فإنَّ أحق الفضائل بالتقديم، وأسبقها في استيجاب التعظيم؛ هو التحلي بحقائق العلوم والمعارف، والتصدي للإحاطة بما في الصناعات من النُّكَتِ و اللطائف، لاسيَّما علم البيان المطلع على نكت نظم القرآن؛ فإنه كشَّافٌ عن حقائق التنزيل رائق، مفتاحٌ لدقائق التأويل فائق، تبيانٌ لدلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، إيضاح لمعالم الإيجاز وآثار الفصاحة؛ تلخيصٌ لغوامض مشكل كتاب الله تعالى ومعضله، تقريبٌ للغوص على فرائد مجمله ومفصله، قواعده كافية في ضوء المصباح إلى أنوار التأويل، موارده شافية عن التهاب الأكباد إلى أسرار التنزيل، به ظهر لبابُ آثار تراكيبه وضَفَى، ومنه عذُبَ عباب بحار أساليبه وصَفَى.

لا يُدْرِكُ الْوَاصِفُ الْمُطْرِي خَصَائِصَهُ وإنْ يَكُنْ سابِقًا في كُلّ ما وَصَفَا"[٢].

تدور فاتحةُ العرض حول بيان أهمية علم البيان ويقصد به علم البلاغة، فبعد أن ألمحَ السعدُ في استهلاله إلى موضوع كتابه عبر إدراجه تلك المفردات البلاغية؛ ها هو يشير هنا إلى موضوع الكتاب صراحة، وهذا الموضوع انتقل إليه السعد بعد أن ذكر العتبة النصية (وبعد)، وهي المعروفة بفصل الخطاب؛ حيث تقوم بوظيفة نصية؛ وهي العمل على أن يكون خروج المنشئ من معنى

١ ينظر: شعرية الفضاء في الرحلة الأندلسية، إبراهيم الحجري، دار النايا، دار محاكاة، دمشق، ط١، ٢٠١٢م، (١٠٠).

٢ المطول (١٢٥). والبيت من (البسيط)، يُستشهد به كثيرًا، ولا يُعرف قائله.

إلى معنى برابطة؛ لتكون رقاب المعاني آخذة بعضها ببعض، وذلك ما يُعرف في البلاغة العربية بالاقتضاب الذي يقرب من التَّخلُّص، وهو أن يقطع المتكلم كلامه الذي هو فيه، ويستأنف كلَامًا آخر غيره[1].

ولازال السعد في صدر مقدمته ومبتدأ عرضه يحاول أن يبسط سياسات حجاجه ومسارات استدلاله بسطًا مُكثَّفًا، فلقد نهض هذا المقطع من الكتاب ببيان المقصد الذي يهدف إليه السعد، كما كشف عن جملة من الحجج والبراهين التي ستغدو حقائق وثوابت في عقول المتلقين.

ويعاودُ السعدُ التَّوسُّلَ في عرضه بالسلطة الدينية لما لها من أثر بالغ في توجيه المتلقي، فبوساطتها يمكن أن يذعن لكثير من الأمور من غير أن يجادل فيها، فيسلِّم بما يتلقَّى، وقد لجأ إليها السعد حين استمد حجته من بنائها على معنىً يشكل جزءًا من المخزون الثقافي المشترك بين المتكلم والمخاطب وهو ضرورة فهم كلام الله تعالى، وأسرار نظمه، فرَبَطَ بين علم البيان الذي يقاربه في مصنفه؛ وهذا المقصَد، فالمتلقي ما أنْ يسمع أنَّ علم البيان (البلاغة) هو الوسيلة لفهم القرآن الكريم، حتى يبالغ في تعظيم هذا العلم، ويهرع إلى طلبه، فالمُنتَظَر بناءً على ما تقدَّمَ أن ينكبَّ المتلقي على قراءة (المطول)[2].

ومن كلام السعد في عرضه الحجاجي الذي يقوم على الحجة والاستدلال البرهاني قوله:" وكثيرًا ما كان يخالجُ قلبي أنْ أشرحَ كتابَ تلخيصِ المفتاح...إذ قد وجدتُهُ مختصرًا جامعًا لغُرَرِ أصول هذا الفن وقواعِدِه، حاويًا لنكت مسائله وعوائِدِه،

١ ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، عبد المتعال الصعيدي، ت١٣٨٣هـ، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١٧، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، (٧١٢).

٢ ينظر: تحليل الخطاب المقدماتي (٢٣٥).

محتوياً على حقائق هي لبُّ آراء المتقدمين، منطويًا على دقائق هي نتاج أفكار المتأخرين، مائلًا عن غاية الإطناب، ونهاية الإيجاز"[١].

والمقصود بالعرض البرهاني تقديم القضايا المراد طرحها، ثم إثباتها بعلل وبراهين مثبتة، فعبارة (إذ قد وجدته..) تنطوي على علة الاختيار؛ حيث فَصَلَتْ هذه الجملة بين المبرهن عليه وبرهانه، وبين المدلول والدليل، والمحتج له والحجة.

وإنك ترى السعدَ يقيم براهينه وحججه حول سبب اختياره كتاب (تلخيص المفتاح) لشرحه دون غيره، إنه يجتهد في إقناع المتلقي بأهمية هذا الكتاب وفضله وسبقه، فهو مختصر جامع، حوى أهم ما في فن البلاغة، واشتمل على آراء المتقدمين وأفكار المتأخرين، لا يعيبه تطويل ممل، ولا يشينه إيجاز مخل.

لقد أراد السعد بهذا أن يتوصل المتلقي إلى نتيجة معينة؛ وهي أنَّ كتابًا هذا قدرُهُ وتلك مكانته لهو حَريٌّ بالتوجه إليه، والإقبال عليه.

الخاتمة:

الخاتمةُ آخر ما يعلَقُ بذهن المتلقي، وفيها يُشْعِرُ الباثُّ المتلقيَ بأنها نهاية القول وختام الخطاب، لذلك يلجأ فيها المنشئ المبدع إلى تلخيص فكرته وتأكيدها وترسيخها في الأذهان، مع حرصه على استمالة المتلقين والتأثير في أحاسيسهم وعواطفهم بتوظيف قدراته الإبداعية، مراعيًا في ذلك ما يأتي:

١- ألَّا يكون مضمون الخاتمة ترديدًا لمعاني العرض بالأساليب ذاتها.

٢- أن يكون مضمون هذا الجزء موجزًا مفيدًا.

١ المطول (١٢٦).

٣- أن يتم فيه تلخيص الفكرة، وتحديد الأهداف في ترتيب يتناسب مع كيفية العرض[١].

يقول السعد في خاتمته: "والمرجو من خِلَّاني، وخُلَّصِ إخواني أن يشيعوني بصالح الدعاء، ويشكروا لي بما عانيت في هذا التأليف من الكد والعناء، وإلى الله أتضرع في أن ينفع به المحصِّلين الذين هم للحق طالبون، وعن طريق العناد ناكبون، وغرضهم تحصيل الحق المبين، لا تصوير الباطل بصورة اليقين. وهذا لعمري موصوف عزيز المرام، قليل الوجود في هذه الأيام، فلقد غلب على الطباع اللدد والعناد، وفشا الجدال والحسد بين العباد، ولئن فاتني من الناس الثناء الجميل في العاجل، فحسبي أرجو من الثواب الجزيل في الآجل، وما توفيقي بالله عليه توكلت وإليه أنيب"[٢].

تمثل الخاتمة كتلة عاطفية مؤثرة في سير الخطاب، فبعدَ أن سردت هذه المقدمة براهينها وحججها في العرض وصلت إلى خاتمتها، وعادت إلى حالتها العاطفية الأولى في إثارتها للمشاعر عبر عاطفة مؤثرة.

ثم خُتمتْ الخاتمةُ بأسلوب الدعاء الذي يُفْرِغُ على القلب ميازيبَ السكينةِ والطمأنينة، وهو ما يؤكد على أن بنية الحجاج الدعائية الكامنة في بنية العبارة السابقة لها خصوصية واضحة؛ فهو حجاج بلاغي مرتبط بموقف روحي ذاتي، يستمد من خلاله المتكلم القوة والعزيمة والقدرة والاستمرار[٣].

---

١ ينظر: بلاغة الحجة في خطب الخلفاء الراشدين دراسة وصفية لنماذج خطابية، هناء حلاسة، مركز الكتاب الأكاديمي، عمَّان، الأردن، ط١، ٢٠١٦م، (٥٢).

٢ المطول (١٣٠).

٣ ينظر: البناء الأسلوبي لبلاغة الدعاء في رسائل الجاحظ، حسن الطويل، مجلة أنساق، مج ٥، ع ١، ٢٠٢١م، (٢١).

وإذا كان لأي خطاب معجمه اللغوي؛ فإن له معجمه النفسي كذلك، وهو معجم يكشف النقاب عن الحركات النفسية التي ينبغي للمتكلم أن يثيرها في المتلقي حتى يضمن نجاح رسالته، ومن أهمها: استمالة الأسماع، وجذب النفوس، والأخذ بمجامع القلوب[١].

وهكذا ظهر التماسك واضحًا بين أجزاء هذه المقدمة، مستهلها وعرضها وخاتمتها، يأخذ بعضُها برقابِ بعض، ويُسْلِمُ السابقُ للَّاحق، لا ترى فيها فجوات معرفية، أو ثغرات شعورية.

وهذا التماسك في ترتيب أجزاء القول يصنعُ حُجِّيةَ التأليف التي بها يقتنع المتلقي بأهمية الكتاب وموضوعه، فيتلقاه بالرضا والقبول.

المطلب الثاني: السُّلَّمُ الحِجَاجي

تنطلق نظرية السلالم من التلازم في فعل المحاجَّة بين قول الحجة ونتيجته، وتكمن أهمية تلك السلالم في إخراج القول من المحتوى الخبري المجرد إلى قول حجاجي ذي وجهة حجاجية تدعم نتيجة ما[٢].

والسلم الحجاجي علاقة شبه منطقية بين الدعوى والحجة، تتجسد هذه الدعوى من خلال الأدوات اللغوية، فتتكون العملية الحجاجية من خلال تدافع الحجج وتواليها وترتيبها حسب قوتها[٣].

---

١ ينظر: دور المخاطب في إنتاج الخطاب الحجاجي، حسن المودن، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، مجموعة باحثين، إشراف حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م، (٢٤٨/١).

٢ ينظر: الحجاج في المناظرة مقاربة حجاجية لمناظرة أبي سعيد السيرافي لمتَّى بن يونس، أحمد اتزكنرمت، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته (٢٩١/٢).

٣ ينظر: البعد التداولي في الخطاب الديني دراسة في ضوء النظرية الحجاجية، رحمونة بوغازي– سعيد بن عامر، مجلة الآداب واللغات، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، مج١٢، ع١، ٢٠٢٢م، (٢٧٦).

وعندما تقومُ بين الحجج المنتمية إلى فئةٍ حجاجيةٍ ما علاقةٌ ترتيبيةٌ معينة فإنّ هذه الحجج تنتمي إلى السلّم الحجاجي فالسلّم الحجاجي بنية متنامية لمراتب الحجج، وبالضرورة لابد من أن يتسم بسمتين:

الأولى: كل دليل يأتي في درجة من السلّم الحجاجي يكون الدليل الذي يعلوه أقوى منه.

والأخرى: إذا كان الملفوظ (ح) يؤدي إلى النتيجة (ن) فهذا يستلزم أنّ (ح) الذي يعلوه درجة يؤدّي إليها أيضًا، ومن ثمّ يعمد السلّم الحجاجي إلى معطيات مراتب تكوينية لغوية وواقعية تعمّق فكرته، وتفصّل حقائقها، وتقوي تماسك عناصرها التكوينية لغويًّا وواقعيًّا[1].

لقد أرادَ السعدُ أن يبين للمتلقي المراحلَ التي مر بها في سبيل تأليفه (المطول)، ويوضح أهمية هذا الفرع من العلم، ويذكر الصعوبات التي واجهها فصاغَها في سلسلةٍ تراتبية، عبر سُلَّمٍ حِجاجي مُنَظَّمٍ مُتماسِك.

ويمكن التمثيل للسُّلَّمِ الحِجاجي في مقدمة (السعد) في كتابه (المطول) بهذه الخطاطة التي تتابعت فيها الحجج المشار إليها بـ (ح) تصاعديًّا، حتى وصلت إلى الغاية والنتيجة المشار إليها بـ (ن):

١ ينظر: الحجاج في المناظرة مقاربة حجاجية لمناظرة أبي سعيد السيرافي لمتَّى بن يونس، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته (٢/٢٩٢).

(ن) النتيجة: تصنيف (المطوَّل)، حتى (جاء كنزًا من الجواهر، وبحرًا من الفرائد)

ح٨ (استنهضتُ الخيل والرَّجِل في تنقيحه)
ح٧ (جمعتُ لشرح هذا الكتاب ما يذلل صعاب عويصاته الأبية)
ح٦ (توفر رغبات المحصلين على تعلمه)
ح٥ (يخالج قلبي الرغبة في شرح التلخيص)
ح٤ (مراجعتي للشيوخ وطلب العلم)
ح٣ (عدم توثيق العلم من أسرى التقليد)
ح٢ (لا سيما علم البيان المطلع على نكت نظم القرآن)
ح١ (العلم أحق الفضائل بالتقديم)

لقد نهضَ السُّلَّمُ الحجاجي في مقدمة (المطول) بدوره الحجاجي على أكمل وجه، فإنك ترى كيف تسلمك كلُّ حُجَّةٍ في هذا السُّلَّمِ أعلاه إلى أختها في مظهر من مظاهر التساند الحجاجي، الذي تتساند فيه هذه الحجج الثمانية المذكورة في مسيرها لتعزيز النتيجة، وتتعاضد على مقصد واحد، ونتيجة واحدة.

لقد استندَ سلمُ السعد الحجاجي إلى معطيات مراتب لغوية؛ حيث يبدأ بذكر فضل العلم بصفة عامة، ثم يخص علم البيان الذي هو أداة لمعرفة نظم القرآن الكريم، ثم يبين أنَّ هذا العلم لم يلقَ من يوثقه، ثم انتقل إلى ذكر مراجعته للشيوخ، ثم خَلَجَان فكرةِ شرح التلخيص في ذهنه، ثم دَعَمَ ذلك برغبة المحصلين في تعلمه، ثم الجمع، ثم الاستنهاض، إلى أن كانت النتيجة، وهي تصنيف كتابه (المطول).

وهذا التساند الحجاجي بين الحجج فيما بينها من جهة، ومع آليات حجاجية أخرى؛ هو الذي دفع (ديكرو) إلى القول بأن الحجج لا تقطع قطعًا نهائيًا بإثبات النتيجة، كما هو الحال في المعادلات الرياضية مثلًا، وغايةُ ما

تقوم به تلك الحجج هو أنها – بلغة أهلِ القانون– تَرَافُعٌ لصالح النتيجة، وهذه المرافعة واحدة إلى جانب مرافعات أخرى ممكنة[١].

وثَمَّةَ أمرٌ في غاية الأهمية وهو أنَّ هذا التَّرقي في السلم الحجاجي الذي تسلمك فيه الحجة إلى ما يليها هو –كذلك– ترقٍ في مقدار الطاقة النفسية التي يُشحن بها المتلقي كلما تقدم به الخطاب؛ ذلك لأنَّ الخطاب الناجع لا يتأتى للباثِّ إلا إذا عرف كيف يهزُّ نفس المتلقي، ويهيئه التهيئة المناسبة التي تسلمه للاقتناع والتسليم، فالخطاب إنما هو صناعة قيادة الأهواء؛ قبل أن يكون صناعة تغيير[٢].

المطلب الثالث: حجاجية الأساليب البلاغية

ليس الحِجاج علمًا يوازي البلاغة، بل هو مجموعة من الأساليب والأدوات يتم اقتراضها من البلاغة، ومن غيرها، ولذلك فمن اليسير الحديث عن اندماج الحِجاج مع البلاغة في كثير من الأساليب[٣].

وإذا كان الحِجاجُ يقوم على تبليغ الحجة وتقويتها؛ فإنَّ البلاغةَ ترتبط في أصل وضعها اللغوي بالبلاغ والبلوغ والوصول إلى المبتغى، من خلال قول له قوة التأثير، وحصيلة الإنجاز، بما أوتيت مباحثها من قيم وظيفية ودلالية، فالبلاغة من جانب تبحث في القيمة الجمالية للغة وهي من جانب آخر "فلسفة

١ ينظر: الحجاجيات اللسانية والمنهجية البنيوية، رشيد الراضي، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، (٤٤١/١).

٢ ينظر: الباتوس من الخطابة إلى تحليل الخطاب– من الاحتجاج بالعواطف إلى الاحتجاج للعواطف، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، (٦٦/٢).

٣ ينظر: من إشكاليات تطبيق المنهج الحجاجي على النصوص حجاجية المفردة القرآنية نموذجًا، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، (١٣٩/٢).

تفكير وثقافة للمجتمع، وأسلوبية للحوار، وهذا سر اكتسابها الطبيعة المزدوجة التي تجمع بين الآليتين: الحجاجية، والتفكيرية التأويلية"[١].

إنَّ مقاربة الأساليب البلاغية تؤكد العلاقة المتينة بين البلاغة والحجاج، الأمر الذي دعا بعض الدارسين إلى القول بأن "الحجاج هو البلاغة، وإن شئت فقل حاضن للبلاغة بكل عروضها وتجلياتها، فهو على هذا أوسع من البلاغة؛ لأنّ جُلَّ مباحث البلاغة داخلة في الحجاج... بجامع الوظيفة التي تقوم بها في الخطاب، والغاية التي تسعى إلى تحقيقها"[٢].

وقد توزعت حجاجية البلاغة في مقدمة (المطول) في الألفاظ والتراكيب والصور، فالألفاظ ألصق ما تكون بعلم البديع، والتراكيب أقوى ما تكون صلة بعلم المعاني، والصور شأنها أوثق بعلم البيان، على أنَّ النظرة الشاملة الواعية لمفاتشة النصوص لا تقارب الدرس البلاغي وفق هذا التقسيم دون أن تتعاور علومُ البلاغة الثلاثة النكتَ واللطائفَ فيما بينها، فيردف بعضُها بعضًا.

لقد وظَّفَ السعدُ جملةً من الأساليب البلاغية توظيفًا يخدم بها حجته في إقناع قارئ كتابه، ويحدث في نفسه القبول والتسليم لكلامه.

وسنتناول (أهم) الموجِّهات والأساليب البلاغية التي توسَّلتها العملية الحجاجية في مقدمة (المطول)، وكيف تَصَيَّرتْ إلى آليات حجاجية:

<u>البديع (من التحسين إلى التكوين):</u>

كانت النظرة السائدة عند بعض البلاغيين للبديع نظرةً نمطيةً يسودها الجمود، وتقوم على الصنعة اللفظية الزخرفية، غافلين عما ينهض به البديع من

---

١ الحجاج في البلاغة المعاصرة، محمد سالم الطلبة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م، (٩).

٢ الحجاج عند البلاغيين العرب، علي سلمان، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، (١/ ٢٥٧).

بُعْدٍ وظيفي، إلى أن جدَّتْ نظراتٌ مستأنفةٌ أوفتْ البديعَ حقه، وأشارت إلى جانبه التداولي الذي ينهض بوظيفة تأثيرية حينما تتصيَّرُ المحسناتُ البديعية آليات حجاجية[١].

وقد حقق اللون البديعي حضوره في مقدمة (المطول)؛ حيث أضحت هذه الألوان الفنية البديعية مسلكًا ينتهجه المؤلفون التراثيون، وهي فنون تقوم على التوازي والتساوي، وما يصحبه من نغم وإيقاع، وذلك إن العرب وجدوا في لغتهم مرونةً واسعة، وطواعيةً كبيرة؛ فسخَّروها لإرضاء ولعهم بالإيقاع العذب، والنغم الصوتي اللذيذ، ومن هنا زيَّنوا عَتَبَاتِ مصنفاتهم بهذه الألوان البديعية[٢].

غير أنَّ النظر الحجاجي لا يتوقف عند وقع الصوت على الاذن؛ ثم لا شيء بعده؛ بل إن المقاربة الحجاجية تتعدى ذلك إلى ما يحدثه من مظاهر الانفعال النفسي، والتلقي الوجداني؛ حيث التأثير والاستمالة والاستدراج. ومن أهم الألوان البلاغية البديعية في مقدمة (المطول) ما يأتي:

السجع:

يُعَرِّفُ البلاغيون السجعَ بأنه تواطؤ الفواصل من النثر على حرف واحد[٣].

ويحظى السجعُ بأهمية بالغة في كافة فنون القول جعلته يحتل "أرفع مراتب الكلام وأعلاها، وأجل علوم البلاغة وأسناها"[١]، إذ لولا أهميته البلاغية والحجاجية

١ ينظر: البعد الحجاجي للبديع في ضوء البلاغة الجديدة دراسة في خطاب الرسائل العباسية، عاشوري يمينة، عبد العليم بوفاتح، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، الجزائر، مج١٤، ع٢، ٢٠٢١م، (٧٧٣).

٢ ينظر: الإيقاع في خطب الحجاج بن يوسف الثقفي دينامية التوازيات التركيبية، كمال الزماني، مجلة التواصلية منشورات مخبر اللغة وفن التواصل بجامعة المدية، ع١٢، ٢٠١٨م، (٢٠٧).

٣ ينظر: بغية الإيضاح (٦٥٣).

لما وجدنا أنَّ فنون القول تحفل به؛ حيث لا تخلو منه خطبة أو رسالة أو وصية أو مقامة أو مقدمة كتاب أو غيرها.

وحِجاجية هذا اللون البديعي تكمن في أن تكرار الحروف الأخيرة في السجع يخدم مقاصد المتكلم وأغراضه، إذ إن هذا التكرار يطرب الأذن بما يحدثه من جمل متساوية ذات جمالية صوتية تأسر المتلقي وتجذبه إلى الكلام، ثم إنه يشكل دافعًا له من خلال هذا الأسر والجذب إلى إدراك إيحاءاته وعلاقتها بمضمون الخطاب وأغراضه ومقاصده، ودافعا له –كذلك– إلى الاقتناع والتصديق[٢].

لقد اهتم السعد بتوظيف السجع توظيفاً كثيفًا في مقدمته، إيمانًا منه بأنَّ هذا اللون البديعي "يخامر العقول مخامرة الخمر، ويخدر الأعصاب إخدار الغناء، ويؤثر في النفوس تأثير السِّحْر، ويلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم، لما يحدثه من النغمة المؤثرة والموسيقى القوية التي تطرب لها الأذن، وتهش لها النفس، فتقبل على السماع من غير أن يداخلها ملل، أو يخالطها فتور، فيتمكن المعنى في الأذهان ويقر في الأفكار"[٣]. وهذا الكلام يَصْدُقُ على مقدمة (المطول)، إذ نجد حضورًا ثريًّا للسجع في هذه المقدمة، وما ذلك إلا لعلم السعد

=

١ الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، الإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني، ت٧٠٥هـ، ت: د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م، (١٦/٣)، وينظر: حجاجية السجع والجناس في الخطاب المقدماتي، مقدمة المقدمة لابن خلدون أنموذجًا، كمال الزماني، مجلة دراسات، مج٧، ع٣، ٢٠١٨م (٦٩).

٢ ينظر: حجاجية الأسلوب في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه، (١٣٨).

٣ الصبغ البديعي في اللغة العربية، أحمد موسى، دار الكتاب العربي، القاهرة، د ط، ١٩٦٩م، (٤٩٧).

بدوره الحجاجي في إقناع القارئ، وحمله على تصديق كلامه، والاقتناع بأهمية ما حوته تلك المقدمة.

ومن أمثلة توظيف السجع في هذه المقدمة قولُهُ: "وطفقتُ أقتحمُ مواردَ السهر غائصًا في لُجج الأفكار، وألتقطُ فرائدَ الفكر من مطارح الأنظار، وبذلتُ الجهدَ في مراجعةِ الفضلاء المشار إليهم بالبنان، وممارسة الكتب المصنَّفة في علم البيان"[1].

وقوله –بعد إعراضه عمَّا كتب تأثرًا منه بنكبة بلاد خرسان–: " فطرحتُ الأوراق في زوايا الهجران، ونسجتُ عليها عناكبَ النسيان، وضربتُ بيني وبينها حجابًا مستورًا، وجعلتها كأنْ لم يكنْ شيئًا مذكورًا، وإلى الله المشتكى من دهر إذا أساء أصرَّ على إساءته، وإنْ أحسنَ ندم عليه من ساعته، ثم ألجاني فرط الملال، وضيق البال، إلى أن تلفظني أرض إلى أرض، وتجرني من رفعٍ إلى خفض"[2]. ولإنَّ البلاغة لا تتجزأ؛ فإنك إذا نظرت إلى حجاجية السجع في هذا المقطع فلن يفوتك النظر إلى حجاجية الشرط وحسن اختيار أداته في قوله (إذا أساء...) حين أراد السعد تحقق إساءة الدهر، وقوله: (وإن أحسن...) في سياق الشك في إحسانه.

والمهم أنَّ خطاب الحِجاج غير معني بالزخرف اللفظي لذاته، بل من جهة كونه وسيلة للاستمالة التي يحدثها ذلك الجرس الصوتي، وهذا الجرس الذي يتولد من جمالية الإيقاع نابعٌ من عناصر أربعة: جرس الأصوات، وجرس المقاطع، وجرس الكلمات، وجرس التراكيب[3]. وهذا الجرس الذي تجده في كلام السعد المتقدم من خلال صوت الفاصلة في تتابع الجمل، وهذا الحضور لامتدادات

١ المطول (١٢٧).

٢ المطول (١٢٨).

٣ حجاجية الأسلوب في الخطابة السياسية (١١٠).

جرس صوت فواصل المقاطع، هي التي توقظ الحس، وتشد النفس، كما أنَّ الإطلاق الصوتي لجرس الفاصلة يناسب عرض الحجج، وتقدُّم الدلائل[١].

وإنَّ من أسرار الحسن في أسجاع مقدمة السعد أنها جاءت سَلِسَة، غير نافرة، بل يستدعيها المقام، ويتطلبها الحِجاج، مما أكسبها تلك الحيوية في تنويعها، فتقصر حينًا، وتطول حينًا آخر. ولا ريب أنَّ المناخ النفسي الذي صاحب تصنيف المطول، كما تبوح به مقدمته، مما كابده السعد وعاناه؛ كان له دوره في إفراز هذه الأساليب البديعية واختيارها[٢]؛ حيث التتابع الصوتي القوي، والفقرات المتلاحقة المتعاقبة، ما جعل السجع –خاصة– وبما له من سمات صوتية إيقاعية يطغى على تلك المقدمة، ويحقق حضوره الوظيفي الحجاجي الفاعل.

المطابقة والمقابلة:

يعرف البلاغيون المطابقة بأنها الجمع بين المعنيين المتضادين، والمقابلة بأنها الجمع بين معنيين متوافقين أو أكثر ثم ما يقابلها على الترتيب[٣].

ويعد التضاد الذي تنهض به المطابقة والمقابلة من أهم الوسائل التي يستثمرها الحجاج في التوجيه الحجاجي، وكلاهما لون بديعي يؤدي دورًا جماليًّا في الكلام، يجعل السامع يُقبل عليه، ويأنس به.

يقول حازم القرطاجني: "إن للنفوس في تقارن المتماثلات وتشافعها والمتشابهات والمتضادات وما جرى مجراها تحريكًا وإيلاعًا بالانفعال إلى مقتضى

---

١ ينظر: الآليات الحجاجية في الخطاب الديني خطبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنموذجًا، حليمة مسعي، سياقات اللغة والدراسات البينية، ع٥، ٢٠١٧م، (٢٥٣).

٢ ينظر: نظرية الحجاج تطبيق على نثر ابن زيدون، عزيز لدية، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط١، ٢٠١٥م، (٩٩).

٣ بغية الإيضاح (٥٧٢ وَ ٥٨٠).

الكلام؛ لأنَّ تناصر الحسن في المُسْتَحْسَنَيْن المتماثلين والمتشابهين أمكنُ من النفس موقعًا...لتبين حال الضد بالمثول إزاء ضده، فلذلك كان موقع المعاني المتقابلات من النفس عجيبًا"[١].

ومن أمثلة التوظيف الحجاجي للتضاد قول السعد –ناعيًا على المتعصبين المقلدين–: "لا ترتفع غشاوة التعصب عن بصائرهم، حتى تنطبع دقائق التعقل في ضمائرهم"[٢].

وقوله –واصفًا طيبَ الإقامة في (هراة)–: ".. فشاهدتُ أنْ قد سطعتْ أنوارُ العلم والهداية، وخمدتْ نيران الجهل والغواية"[٣].

ومن صور هذه المعاني المتقابلة قوله: "ولئن فاتني من الناس الثناء الجميل في العاجل، فحسبي ما أرجو من الثواب الجزيل في الآجل"[٤].لقد حشدَ السعدُ هذه المعاني المتقابلة: (ترتفع – تنطبع، التعصب –التعقل، سطعت– خمدت، العلم – الجهل، الغواية – الهداية، فاتني – أرجو، العاجل –الآجل).

وحجاجية الطباق والمقابلة ترجعُ إلى ما ينتج عنها من علاقات تتمثَّل في التوقع والإدراك من جهة؛ ثم التثبيت والإيضاح من جهة أخرى، ويمكن أن نمثِّل لذلك بهذه الخطاطة:

١ منهاج البلغاء (٤٤– ٤٥).
٢ المطول (١٢٦).
٣ السابق (١٢٨).
٤ السابق (١٣٠).

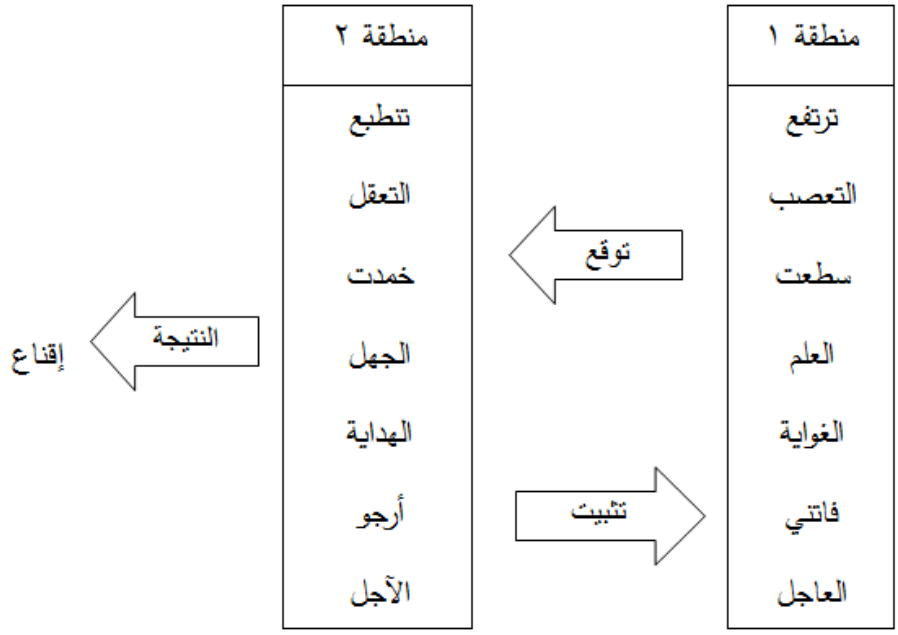

إنَّ حجاجية هذا النموذج – كما يوضح الرسم – تنبع من جهتين؛ أولاهما تعود لعناصر المنطقة الأولى إذ تطرق آذان المتلقين، فإنها تجعلهم ينخرطون في الكلام من خلال توقعهم لعناصر المنطقة الأخرى، فذِكرُ (التعصب أو العاجل) –مثلًا– يدفعهم لتوقع ذكرِ (التعقل أو الآجل)، وهذه العملية تُبقي المتلقي يقظًا منتبهًا من خلال تطلُّعه إلى عناصر المنطقة الثانية.

أما الجهة الأُخرى فتعود إلى أن عناصر المنطقة الثانية حين تُذكر، فهي تعمل على تثبيت عناصر المنطقة الأولى، وتأكيدها لدى المتلقي[١]، ويسري هذا في كل عناصر الطباق، وكذلك عناصر المقابلة. وهذا التوقع وذاك التثبيت له قوته الحجاجية، وقدرته على الإقناع.

ويبقى القول بأنَّ المتأمل في مقدمة (المطول) يجد أنَّ التضاد يمثل جانبًا من الصراع الذي يعيشه السعد في رحلته التأليفية، صراعٌ في ذاته، وصراعٌ مع

١ ينظر: حجاجية الأسلوب في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه (١٨٠).

غيره، ولذلك فهو يراوح بالمتلقي بين هذه المعاني المتقابلة المتصارعة، في هيكلة تركيبية تتواجه فيها الكلمات وتتعارض العبارات لتجسد هول ما يعانيه.

الاقتباس والتضمين

يحاول السعد الاستفادة من إمكانيات النص القرآني التأثيرية والإيقاعية والبيانية والمعجمية متوسلًا في ذلك فن الاقتباس، راجيًا أن يشحن خطابه بكل وسيلة من وسائل الجذب والإقناع، ولا ريب أنَّ القرآنَ الكريمَ حُجَّةُ الحُجَج، وأقوى الأدلة على الإطلاق؛ لما يمثله من سلطة وحجية[1].

ولقد ذكرَ السعدُ في مقدمته آيتين كريمتين بشكل صريح، فأوردها شواهدًا، وآياتٍ أخرى أشار إليها بشكل ضمني، فأوردها اقتباسًا، مما يدل على إدراكه لقوة وسلطة النص القرآني الكريم.

يقول السعد مادحًا السلطان: "... مالكُ سرير الخلافة بالاستحقاق، المجتهد في نصب سرادق الأمن والأمان الممتثل بنص: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾[2]، الخالص طويته في إعلاء كلمة الله الصادق نيته في إحياء سنة رسول الله، .. وشيَّدَ بنيان الهداية إثر ما أشرف على الانهدام.. فقرأت: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[3] "[4]. وهذه تعد شواهد قرآنية يعزز بها السعد موقفه، ويقوي بها فكرته.

---

١ ينظر: مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، صمود حمادي، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب منوبة، تونس، (٢٦).

٢ سورة النحل (٩٠).

٣ سورة فاطر (٣٤).

٤ المطول (١٢٨).

وأمَّا الاقتباس القرآني فمنه قول السعد –وهو يبين عن عزمه على استئناف ما بدأه من شرح التلخيص–: ".. حتى رجعتُ إلى ما جمعت، وشمَّرتُ الذَّيلَ لتصحيحه وترتيبه، واستنهضتُ الرَّجِلَ والخيلَ في تنقيحه وتهذيبه"[١]، وهو اقتباس من قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[٢].

ويقول –واصفًا حاله مُعْرِضًا عما كتب من أوراق–: "...فضربتُ بين وبينها حجابًا مستورًا، وجعلتُها كأنْ لم يكُنْ شيئا مذكورًا"[٣]. وهذا اقتباس من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[٤]. وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾[٥].

وكذلك استعان السعد بفن التضمين[٦] في سبيل التأثير في المتلقي واستمالته، على نحو تعبيره عن الفتن في خراسان، إذ قال: ".. وحين فرغتُ عن تسويد الصحائف بتلك اللطائف

رَمَانِي الدَّهْرُ بالأَرْزَاء حَتّى فُؤادي في غِشَاء مِنْ نِبَال
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي سِهَامٌ تَكَسَّرَتِ النِّصَالَ عَلَى النِّصَال[٧]

---

١ المطول (١٢٧).
٢ سورة الإسراء (٦٤).
٣ المطول (١٢٩).
٤ سورة الإسراء (٤٥).
٥ سورة الإنسان (١).
٦ يقول ابن الأثير: " وهو أن يضمِّن الشاعرُ شعرَه والناثرُ نثرَه كلامًا آخر لغيره، قصدًا للاستعانة على تأكيد المعنى المقصود". المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، ت ٦٣٧هـ، قدَّمه وعلَّق عليه د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، نهضة مصر، د ط، د ت، (٢٠٣/٣).
٧ البيتان من (الوافر) للمتنبي في ديوانه بشرح البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، د ط، ٢٠٠٧م، (٧٠/٢).

وذلك من توارد الأخبار بتفاقم المصائب في العشائر والإخوان، عند تلاطم أمواج الفتن في بلاد خراسان، لاسيما:

دِيَارٌ بِهَا حَلَّ الشَّبَابُ تَمِيمَتِي وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابُهَا"[1].

ومن ذلك قوله: "فلم يدعْ من أوطانها إلا دِمْنَةً لم تكلَّمِ من أُمِّ أَوْفَى"[2].

وهذا التضمين يعزز الفكرة التي يلقيها المرسل، ويؤول إلى اقتناع المتلقي بها، وهو –كذلك– ينبه المتلقي بأنَّ هذه الفكرة قد تناولتها أفكار الآخرين من قبل، فيأنس المتلقي بما يسمع، ويُسَلِّمُ له، وهذا الأُنسُ لاحظَهُ ابنُ جني حينما قال عن هذا الفن: "ووجدتُ في اللغة من هذا الفنِّ شيئًا كثيرًا لا يكاد يُحاطُ به.. فإنَّهُ فَصْلٌ من العربيةِ لطيفٌ حسنٌ يدعو إلى الأنس"[3].

وهكذا تتجاوز هذه الفنون البديعية مستوى الطلاء الخارجي والزخرف الشكلي إلى مستوى تصبح فيه جزءًا من الدلالة، وسندًا داعمًا لوجهة نظر المتكلم، وركنًا نصِّيًّا أساسًا في الإقناع والتأثير الحجاجي من خلال ما يتكون منه من إعجاب ومرح وانبساط وحماس[4].

---

١ المطول (١٢٧). والبيت (ديار بها...) من (الطويل)، واختلفوا في نسبته، وممن نُسب إليه ابن الدمينة، ينظر: الدر الفريد وبيت القصيد، محمد ايدمر، تح: كامل الجبوري، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠١٥م، (٢٣٧/٥).

٢ السابق (١٢٨).

٣ الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني ت٣٩٢هـ، ت: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، (٣١٢/٢).

٤ ينظر: بلاغة الدعاء بحث في المبادئ والسمات والوظائف، عبد الفضيل ادراوي، كنوز المعرفة، عمان، ط١، ٢٠١٨م، (٢١٥).

التوكيد (تمكين):

يلجأ المتكلم إلى التوكيد حينما يهدف إلى تأكيد الفكرة وتثبيتها وتقويتها في نفس المتلقي.

جاء في (الطراز): "واعلمْ أنَّ التأكيدَ تمكينُ الشيء في النفس، وتقويةُ أمره، وفائدتُهُ إزالةُ الشكوك، وإماطةُ الشبهات لما أنت بصدده، وهو دقيقُ المأخذ، كثيرُ الفوائد"[١].

وفي التأكيد إشارة إلى أنَّ المؤكَّدَ أمرٌ هامٌ، يستدعي من المتلقي التأمل وإجالة الفكر[٢]، وهذا ما نجده في ثنايا مقدمة (المطوَّل)، إذ الأمور المؤكدة فيها تكتسي أهمية بالغة، وتأكيدها هو بمنزلة الالتزام بمضامينها.

وكانت الأداةُ (إنَّ) أكثرَ ما تم التأكيدُ به في هذه المقدمة على نحو قول السعد:

- "**إنَّ** أحقَّ الفضائلِ بالتقديم وأسبقَها في استيجاب التعظيم، هو التحلي بحقائق العلوم والمعارف، ... لاسيما علم البيان...**فإنه** تبيان لدلائل الإعجاز وأسرار البلاغة"[٣].
- "و**إني** بعدما قضيت من بعض الفنون وطري...بعثني صدق الهمة.. على الترحل إلى جرجانية خوارزم"[٤].

ومن توظيف حرف التحقيق والتوكيد (قد) قوله: "وبعضهم **قد** تصدوا لسلوك طرائقه من غير دليل"[٥].

---

١ الطراز (٢/٩٤).

٢ ينظر: الحجاج في الخطابة النبوية (١٤٨).

٣ المطول (١٢٥).

٤ السابق الصفحة نفسها.

٥ المطول (١٢٧).

وليس همنا في هذا البحث إحصاء كل مواطن التوكيد في هذه المقدمة مناط البحث، بل الوقوف على بعض ما توسَّلَهُ السعد من توكيدات، وما لها من فعالية حجاجية، فلجوء المرسل إلى التوكيد –وهو زيادة في التركيب– إنما هو لتثبيت تلك الأفكار في ذهن المتلقي، وإزالة ما قد يحول بينه وبين مقصد المنشئ[1].

التوازي التركيبي (تأثير)

التوازي –بصفة عامة– تكرارُ عناصر تركيبية على شكل متتاليات لغوية، وهو بما يحدثه من تكرار وتماثل بنيوي من أبرز العناصر التي تمنح الكلام بُعدًا جماليًّا جذَّابًا يثير النفوس ويجذب القلوب[2].

وقد حظي التوازي اللغوي في الدراسات الحديثة باهتمام بالغ، حيث وضعه (ياكبسون) في المنزلة الأولى، وفضَّله على كل العناصر الإيقاعية الأخرى. يقول: "إنَّ موضوع التوازي لا يُسْتَنْفَد، ولا أعتقد أنه قد استهوتني مسألةٌ خلال حياتي العلمية بقدر ما استهوتني مسألةُ التوازي"[3].

وقد حفلت مقدمة (المطول) بهذا التوازي التركيبي، وشكَّلَ ظاهرة صوتية واسعة، لها دلالاتها المعنوية التي يتغيَّاها السعد.

وللتوازي وجوه، منها ما يكون ناتجًا عن توازي المقابلة، ومنها توازي البنى التركيبية، ومنها توازي الأوزان والصيغ الصرفية.

ومن أمثلة ذلك قوله: "وأومأتُ إلى مواضع زلَّتْ فيها أقدامُ الآخذين في هذه الصناعة، وأغمضتُ عما وقع لبعض متعاطي هذا الكتاب من غير بضاعة،

---

١ ينظر: الأفق الحجاجي في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، عمر بو قمرة، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط١، ٢٠١٧م، (١٣٠).

٢ ينظر: حجاجية الأسلوب في الخطابة السياسية (١٩٣).

٣ قضايا الشعرية، رومان ياكبسون، ترجمة: محمد الولي – مبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب ط١، ١٩٨٨، (١٠٤).

ورفضت التأسي بجماعة حظروا تحقيق الواجبات، وما فرضت على نفسي سنتهم في تطويل الواضحات"[١].

وقوله: "فشدَّ ذلك عضدي، وهزَّ من عِطْفِي".

كما استعان السعد بتوازي الأوزان والصيغ الصرفية؛ حيث كان يعمد إلى كلمة أو جملة ذات وزن معين ثم يقوم بإعادة هذا الوزن دون إعادة تلك الكلمة، نحو قوله: "وأودعته فرائد نفيسة، وشِّحَتْ بها كتبُ القدماء، وفوائد شريفة، سمحتْ بها أذهانُ الأذكياء"[٢]. وانظر إلى هذه القوالب المتوازية المتساوية التي تأخذ بالأسماع والألباب: (فرائد نفيسة=فوائد شريفة، كتب القدماء=أذهان الأذكياء).

ومن ذلك قوله: " ففتح الله –تعالى– عيني منها على جنة النعيم، بلدة طيبة، ومقام كريم"[٣].

وأنت ترى أنَّ التراكيب المتوازية تتعاضد من فنون بلاغية أخرى كالطباق والمقابلة والسجع، والمهم أن كل فن من هذه الفنون له طاقته التأثيرية التي يمد بها المعنى، ويقوي بها المقصد، والحال في تضافر هذه الفنون كما يقول النورسي:" إنَّ من أساس البلاغة الذي به يبرق حسن الكلام؛ تجاوبَ الهيئات وتداعيها وتآخذها على المقصد الأصلي، وإمداد كلٍّ منها بقدر طاقته لذلك المقصد الذي هو كمجمع الأودية المتشرب من كل الجوانب"[٤]. وإدراك ذلك (التَّشرب من كل الجوانب) يتأتَّى بتوسيع دائرة النظر لإدراك وظائف الأساليب، وطاقاتها التأثيرية التي تثري بها المعنى.

---

١ المطول (١٢٧).

٢ السابق الصفحة نفسها.

٣ السابق (١٢٨).

٤إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، بديع الزمان سعيد النورسي، تح: إحسان قاسم الصالحي، تقديم د. محسن عبد الحميد، جامعة بغداد، ١٩٨٩م، (٤٠).

والمهم أنَّ هذا التوازي والاعتدال الصوتي له جاذبيته وتأثيره، وهو ما يشير إليه ابن الأثير حين نوَّه بالاعتدال في مقاطع الكلام، واعتبرَ أنَّ "الاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع"[1].

وهذا الاهتمام بتوازي الجمل في قوالبها ليس عبثًا، فباعثُهُ الاهتمامُ بالمعاني التي تحملها، وهو ما يشد المتلقي للاهتمام بذلك الخطاب، وفي ذلك يقول ابن جني: "فإذا رأيتَ العربَ قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها، وحموا حواشيها وهذبوها ...فلا ترين أنَّ العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه بها"[2].

ولا شك أن الخطاب المنسجم الأصوات المعتدل المقاطع يكون مؤثرًا في المخاطب أكثر من غيره، على نحو ما وجدناه في توازي هذه النماذج من مقدمة المطول؛ حيث يلذ على السامع فتنشط لسماعه الآذان، وتتشوق إليه النفس، فتقبل على سماعه، وتمضي في تأمل معانيه، واستجلاء أغراضه ومراميه، فيتمكَّنُ منها المعنى فضلَ تمكُّن، ويثْبُتُ الشيءُ الذي يجعلها تميل إليه، وتقتنع به[3].

وهكذا حققت توازيات السعد التركيبية إيقاعًا منغَّمًا، وبنية تطريزية، جعلت هذه المقدِّمة وحدةً منسجمةَ الأجزاء، متلاحمةَ الأصوات، معتدلةَ المقاطع، فيميلُ إليها المتلقي، ليس بالإصغاء والسماع فقط، وإنما بالفهم والتدبر والتصديق والقبول.

١ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢١٢/١).

٢ الخصائص (٢١٨/١).

٣ ينظر: حجاجية الأسلوب في الخطابة السياسية (١٩٢).

التشبيه (تقريب):

لا غنى للخطاب الحجاجي عن التوسل بالتشبيه، واتخاذه دعامةً حجاجية، ورافدًا للعملية الإقناعية؛ حيث يُسهِّل على المتكلم النفاذ إلى عوالم المتلقي وأفكاره، فالتشبيه لون بلاغي يتوسل به المتكلم لتقريب فكرته من ذهن المتلقي.

وفي حديث البلاغيين عن التشبيه ما ينبئ عن حجاجيته، فهذا أبو هلال العسكري يقول عنه: "هو أن تأتي بمعنى، ثم تؤكِّده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد والحجة على صحته "[١]، ويؤكد ابن سنان الخفاجي على أن الاستدلال بالتمثيل " يزيد في الكلام معنى يدل على صحته بذكر مثال له"[٢]. ولهذا كان التشبيه من أقوى آليات الحجاج، فهو –على حد تعبير الإمام– "إنْ كان حِجاجًا كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر ... وإنْ كان وعظًا كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر"[٣].

ومن أمثلة التشبيه قول السعد –يصف (المطول) بعد الفراغ من تصنيفه–: "...فجاء –بحمد الله– كنزًا مدفونًا من جواهر الفوائد، وبحرًا مشحونًا بنفائس

١ الصناعتين (٤١٦).

٢ سر الفصاحة، عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي (٤٦٦هـ)، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي، مطبعة ومكتبة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م، (٢٦٧).

٣ أسرار البلاغة، الإمام عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ)، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط١، ١٤١٢هـ ١٩٩١م، (١١٥–١١٦).

الفرائد"[1]. حيث شبه كتابه بالكنز والبحر تشبيهًا بليغًا حُذفت منه الأداة، ووجه الشبه[2].

وكذلك نلاحظ في قوله: (جواهر الفوائد) إضافة المشبه به للمشبه، والأصل: فوائد كالجواهر.

ومثله قوله: ".. ثم هداني الله –سبحانه– سواءَ الطريق، وأفاضَ عليَّ سجال التوفيق"[3].

فـ (جواهر الفوائد، وسِجَالُ التوفيق) جاءت على حد (لجين الماء)[4].

حيث أضيف المشبه به إلى المشبه، إذ الأصلُ: التوفيق كالسِّجَال، جمع سَجْل، وهو الدلو المملوءة[5]، ووجه الشبه الإفاضة والشمول.

والتشبيه تقنية خاصة في العملية الحجاجية عند البلاغيين، لها فعاليتُها في الإقناع، لما يوفره من طاقة حجاجية قادرة على إثارة المتلقي، وشغل تفكيره، بالبحث عن العلاقة التي تجمع بين صورة المشبه والمشبه به، أي بين كتاب (المطول) هنا من جهة؛ والكنز المدفون بقيمته والبحر المشحون بجواهره من جهة أخرى، وبين توفيق الله للسعد وهو يفيض عليه من جهة؛ وسجال الماء

---

١ المطول (١٢٩).

٢ يشترط البلاغيون أن يُذكر وجه الشبه في الكلام صراحة، مجرورًا، أو تمييزًا، أو غير ذلك.

٣ المطول (١٢٩).

٤ وذلك في قول الشاعر: والرّيحُ تَعْبَثُ بِالْغُصُونِ وقد جَرَى ذَهَبُ الأَصِيلِ على لُجَيْنِ الْمَاءِ.

البيت من (الكامل)، ولا يُعرف قائله كما في معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد، أبو الفتح العباسي (ت ٩٦٣هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، د ط، د ت. (٩٥/٢).

٥ ينظر: لسان العرب، (مادة لهث)، (١٨٥/٢).

المملوءة من جهة أخرى، وما تحدثه هذه العلاقات التصورية من أثر في نفس المتلقي، تحمله على الإقناع والقبول بتلك التشبيهات[١]، وما تحمله من معانٍ وأفكار.

الاستعارة (تكوين الإقناع):

الاستعارة ضربٌ من المجاز له طاقتُهُ التأثيريةُ القوية، ويكمن بُعْدُ الاستعارة الحجاجي في أن استعمالها "من قبل المتكلم المحاج يكون لغاية في نفسه، أي مقصودة من أجل جذب انتباه المتلقي المحاجَج والتأثير فيه؛ لجعله مع أو ضد القضية المطروحة، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى فإنَّ الاستعارة المستعملة من قبل المتكلم المحاج ستعمل على إشراك المتلقي المحاجَج في عملية المحاجَّة؛ لأنه سيسعى إلى شرحها وتفكيكها؛ للوصول إلى معناها المقصود، هذا المعنى الذي لا يتأتى له إلا إذا ربطه بالسياق العام للقول"[٢].

إنَّ الأقوال الاستعارية تمثل أبلغ الآليات البلاغية الحجاجية المعتمدة وأقواها؛ وذلك لتجسيدها المعنوي في صورةٍ ماديةٍ محسوسة؛ حيث تُسهِّل على العقول إدراكها، وهذا ما جعل بعض النقاد المعاصرين يعتبرها الوجه البلاغي الذي نجسد به حياتنا[٣].

ومن استعارات مقدمة (المطول) الحجاجية قول السعد –وهو يتحدث عن منهجه في شرح تلخيص القزويني–: "... وتمسَّكْتُ في دفع اعتراضاته بذيل

١ ينظر: حجاجية التشبيه ودوره الإقناعي في الحديث النبوي الشريف، الجمعي حميدات، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، العام الثالث، ع١٥، ٢٠١٦م (١٠٧).

٢ الاستعارة وبعدها الحجاجي في الخطاب الإقناعي، الساكر مسعودة، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، مج١٤، ع٢، ٢٠١٨م، (٣٥٧).

٣ ينظر: الاستعارة وبعدها الحجاجي في الخطاب الإقناعي (٣٦١).

العدل والإنصاف ... وأغمضت عما وقع لبعض متعاطي هذا الكتاب من غير بضاعة"[1].

أرادَ السعدُ أنْ يبينَ لقارئ كتابه منهجَهُ وطريقتَهُ في شرحِه للقزويني فَعَمَدَ إلى أسلوب الاستعارة يقرّبُ به فكرته، ويُحاججُ به عن منهجه، أراد القول بإنه ملتزمٌ بالعدل كما أنه مجانِبٌ لأقوال من ليسوا من أهل هذا الفن، فصوَّرَ التزامه بالتمسُّك؛ وذلك لما يوحي به هذا اللفظ من الحرص الشديد، والرغبة القوية، ثم زاد في التصوير فجعل للعدل والإنصاف ذيلًا يتمسَّكُ به، كما للمرأة التي تخفر ثوبها فيتدلى، على سبيل الاستعارة المكنية التخييلية. ثم يصور السعد إعراضه عن بعض الأقوال بإغماض العين بجامع الترك والمجانبة وعدم التتبع، على سبيل الاستعارة التصريحية.

ويكمن دور هذه الاستعارة الحجاجية في قدرتها على جلب السامع، وتحريك خياله حتى يستوعب الأفكار والصور المعروضة عليه، يتحرك خياله وهو يربط ويستوعب ويحلل (تمسُّكَ) السعد بـ(ذيل) العدل، و(إغماضه) عن بعض الآراء. وهذه أهمية أساليب المجاز، وخاصة الاستعارة؛ لإنَّ المجاز ينشئ المعنى إنشاءً، ويصدم كل من لا يشاطر المتكلم وجهة نظره. لقد أتاحت استعارات السعد للمتلقي الاتجاه نحو المعنى الدلالي للقول، وليس فقط معناه اللفظي، وبالتالي إشراكه في بناء معناه من خلال قيامه بتأويله وتفسيره وربط أجزائه لإدراك المعنى الذي يقصده السعد، وبهذا تساهم الاستعارة في تعزيز الجانب التأثيري للقول[2].

إنَّ استحضار هذه المعاني في مثل هذه الصورة الاستعارية "تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه

---

١ المطول (١٢٧).

٢ ينظر: الحجاج في الخطابة مقاربة حجاجية لخطبة لهارون الرشيد، عبد الواحد السيد، ضمن كتاب الحجاج وتحليل الخطاب دراسات مهداة إلى الدكتور أبو بكر العزاوي، تنسيق: رشيد شجيع، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط ١، ٢٠١٧م، (١٦٨).

تبكيت للخصم الألد، وقمع لسَوْرَة الجامح"[١]. ولا ريب أنَّ تقديمَ المعنى بهذه الصورة يجعلُ المتلقي يتمثَّله، ويتبين حقيقته، ومن ثم الامتثال والقبول.

وكل هذا يتم بنقل الشيء عن أصل وضعه اللغوي إلى الوضع المنقول إليه على سبيل الاستعارة التي "هي ادِّعاء معنى الاسم للشيء، لا نقل الاسم عن الشيء"[٢]، والادِّعاء أسلوب إقناعي حِجَاجيٌّ يُحاوِل المُدَّعي من خلاله إكراه المُدَّعَى عليه على قبول ادِّعائه والتسليم به، أو على الأقل لفت انتباهه إليه، ومن ثمة كانت "العلاقة الاستعارية هي أدلُّ ضروب المجاز على ماهية الحِجَاج"[٣].

فلو تأملنا –مثلًا– القولَ الاستعاري: (أغمضت عما وقع لبعض متعاطي هذا الكتاب من غير بضاعة) نجده يحيل المتلقي إلى نتائج حجاجية، تقود إليها الاستعارة، ويمكن التمثيل لها بما يأتي:

أغمضت عما وقع لبعض متعاطي هذا الكتاب
↓
خلو المطول من أقوال فاسدة
↓
تنقيح السعد لكتابه
↓
اعتماده آراء أهل العلماء المعتبرين
↓
جودة ما تم طرحه في المطول من آراء وأقوال
↓
قبول المطول والإقبال عليه

١ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٥٣٨هـ)، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ط، د ت. (١/١٠٩).

٢ دلائل الإعجاز، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م، (٤٣٧).

٣ اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٨م، (٢٣٣).

فالدور الحجاجي لمثل هذه الاستعارات يتمثل في كونه يقود المتلقي إلى نتائج حجاجية فيكون القول بهذا أكمل إقناعًا، وأنجح إبلاغًا، وأشد تأثيرًا.

الكناية (محاجَّة):

الكناية مقتلٌ من مقاتلِ البيان العربي، وغايةٌ لا يصل إليها إلا من لَطُفَ طبعُه، وصَفَتْ قريحتُه، يُلجأ إليها للتعبير عما يدور في النفس من المعاني، ويجيش في الصدر من الخواطر، وهي وسيلة قوية من وسائل الإقناع والتأثر[١].

وإذا كانت الاستعارة تعتمد مبدأ التشابه؛ فإن الكناية تعتمد مبدأ التجاور، أي الانتقال من شيء إلى آخر مجاور له، فينتقل الذهن من اللازم إلى الملزوم[٢].

وهذا الانتقال وتتبع حركة المعنى الكنائي فيه؛ يحتاج إلى مزيد رويَّة، وفضل تأمُّل، تصحبه متعة البحث عن المعنى وتقصِّيه؛ وذلك لأنَّ الكناية فيها التعريض الخفي الذي يكون بخفائه أبلغ في معناه من التصريح الظاهر الذي لا ستر دونه، فيكون موقعه من المتلقي موقع البُشرى عند صاحبها، لحلاوة ما يرد عليه من معناها[٣].

وتتأسس الوظيفة الحجاجية في الصورة الكنائية على مبدأ تصوير المعقول في صورة المحسوس؛ حيث يتم توجيه المتلقي إلى تلمس التشكيل الجديد لتلك الصورة الجديدة.

وقد وظَّفَ السعدُ هذا الرافدَ الإقناعي في مقدمته توظيفًا ناجعًا، ومن المشاهد الحجاجية التي ترسمها الكناية وتقدمها في صورة حسية ذلك المشهد الذي يصوِّرُ فيه السعدُ فضلَ أشياخه الذين تلقى عليهم العلم، إذ يقول: "وصرفتُ

---

١ ينظر: الأسلوب الكنائي نشأته – تطوره – بلاغته، د. محمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م، (٨٧).

٢ ينظر: آليات الحجاج القرآني دراسة في نصوص الترغيب والترهيب، عبد الجليل العشراوي، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط١، ٢٠١٦م، (٣٦٠).

٣ ينظر: عيار الشعر، أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (٣٢٢هـ)، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة، (٢٤).

دهرًا من الزمان إلى الفحص عن دقائق علم البيان، أُراجِعُ فيه الشيوخَ الذين حازوا قصبَ السبقِ في مضماره"[١]. و(وقصبُ السبق) كناية عن التقدم والفوز والصدارة، والسعد يشير بهذا إلى مكانة أشياخه العلمية التي لا يصل إليها إلا الخُلَّصُ من العلماء.

ومن أسرار قوة مثل هذه الكناية وتأثيرها في المتلقي أنها تقدِّم الحقيقة مصحوبة بدليلها، والقضية وفي طيها برهانها، وهي بهذا تُعدُّ "وسيلة من وسائل الإقناع بالمعنى عن طريق إثباته مؤكدًا، وهذا ما عرف عند القدماء والشُّرَّاح بالدعوى والدليل"[٢].

فالقضية عند السعد هنا هي بيان فضل أشياخه وتقدمهم، ودليلها حيازتهم قصب السبق في مضمار العلم الذي يستلزم علو كعبهم وتميزهم، وبالتالي تلقي كتابه بالقبول، والتمثيل التالي يوضح المراد:

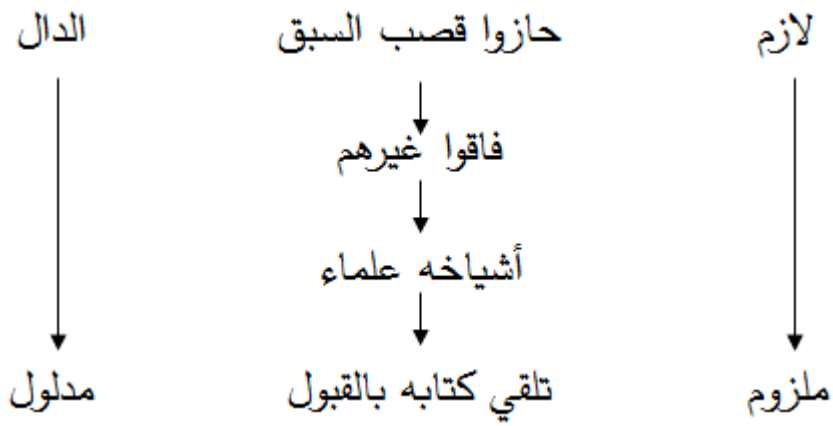

وهذه الصورة الكنائية تبني فاعليتها الحجاجية على أساس من المبالغة والتفخيم، لتحقيق مزيد من الإثارة في النفوس، وهذا من أهم آثار الكناية

١ المطول (١٢٦).

٢ أساليب البيان والصورة القرآنية دراسة تحليلية لعلم البيان، د. محمد إبراهيم شادي، دار والي الإسلامية، المنصورة مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م، (٤٤٦).

الحجاجية حيث "ترفعُ من قيمة المعنى البعيد الذي تشير إليه في نظر المتلقي، وتعمل على توكيده في نفسه، والاعتزاز به وتفخيمه"[1]. وبهذا يكون الأسلوب الكنائي قد أسهم في التأثير والاقناع في المتلقين، حين يسلمهم إلى الرضا والقبول، وذلك لأنَّ هذه مثل هذا الكناية تجمع بين البعدين: الفني والفكري، فهي كما تُكثِّف الصورة، تُكثِّف المعنى كذلك، فتغدو بفضل هذين البعدين خطابًا حجاجيًّا يحقق الغاية المنشودة، من خلال الإقناع والتأثير.

وهكذا نهضت هذه الأساليب البلاغية بوظيفتها الحجاجية في مقدمة (المطول)، جامعةً بين الإقناع والإمتاع، ولعل قوة الدافع وحساسيته عند السعد هو السر الذي أكسب تلك الأساليب مهابتها، ومنحها جمالها.

وهذه الحركية الفنية تؤكد أنَّ (المقدِّمات) تمثل ذاكرةً حيَّةً تحمل صفات الثراء والمرونة، ما جعلها حاضرة في القراءات النقدية المعاصرة، مع ما تحمله تلك القراءات من محاولات مستأنفة لإعادة النظر في المقاييس، أو تكييفها[2].

والمهم في هذا كله أنْ يستمدَ الباحثُ من الإرث البلاغي أصولَه وقواعدَه، وينتقي من الدرس الحديث ما يلائمه ويناسبه، فيجمعُ بين المعرفة التراثية والمُكْنَةِ اللسانية، ويقيم تصالحًا بين الماضي والحاضر، وفق قراءة لا تلغي الآخر، ولا تصادمه؛ بل تفيدُ منه، وتأنسُ به.

---

١ آليات الحجاج القرآني دراسة في نصوص الترغيب والترهيب (٣٠٧).

٢ ينظر: عتبات النص التراثي مقاربة في عتبة المقدمة، سعيدة تومي، مجلة تاريخ العلوم، ع٩، ٢٠١٧م، (١٦٣).

الخاتمة

لئن كانت قيمةُ الخطاب رهينةً بمدى قدرته على إفادة المعنى، والدلالة على المقصد، وتمرير مراد المنشئ، والتأثير في المتلقي؛ فقد بدا ذلك بارزًا واضحًا في مقدمة (المطول) التي توسَّلت آليات إقناعية، وأساليب تأثيرية، تآزرت على مقصد واحد، فنالت غايتها، وحققت مبتغاها، مما يجعلها نصًّا حجاجيًّا يجمع بين ما هو جمالي مُمتع؛ وما هو تأثيري مُقنع.

ويمكن رصد أهم النتائج التي برزت في ثنايا هذه الدراسة على النحو الآتي:

١- توسَّلَ السعدُ في مقدمة (المطول) عُدَّةً حجاجية تتكئ على آليات متنوعة نجحت في تأدية مهمتها حين أقنعت قارئ المقدمة، ودفعته إلى عبور تلك العتبة إلى ما بعدها من متن الكتاب.

٢- بدا واضحًا تماسك أجزاء مقدمة (المطول)، وتناغم هيكلها الحجاجي، وبرزتْ علاقاتُ التوالدِ والتنامي بينها من خلال سُلَّمِها الحجاجي، متجهةً به في مجموعها إلى مقصد واحد، عبَّرتْ عنه في أجمل عبارة، وأحسن صياغة.

٣- روعي في هذا الحِجاج التدرج في طرح الحجج، حيث تدفع الحجج إلى وجهة الإقناع والتسليم.

٤- وردت صورُ البديع جزءًا من بناء المقدمة، ومكونًّا من مكوناتها، إنها لم تأتِ للتحسين والتجميل فحسب، بل نهضت بوظيفة التأثير والإقناع.

٥- أدَّت حجاجيةُ الصورة دورًا بارزًا في عملية الإقناع والمحاجَّة، فقد كانت صورُ المقدمة هي الشكل البياني القادر على إثبات المعنى، عبر قوة تأثير الصورة في عاطفة المتلقي وعقله.

٦- جاء التوظيفُ المكثَّف للأساليب البلاغية المتنوعة منسجمًا وطبيعة المهمة التي سيقت من أجلها تلك التراكيب، فأسهمت في قوة الحجاج، مراعية ما تتطلبه السياقات والأغراض.

٧- برزت شخصية السعد محاججًا مقنعًا في التعاطي مع متلقي كتابه، حيث شكَّلَ مقدمته في حلة بيانية واعية، فهي تمثل صورة حجاجية لمنهجية العتبات التراثية واستثمارها الحجاجي، فاكتمل الفكر المنضبط المنظم بالتواصل البلاغي الفعَّال.

٨- تؤكد هذه الدراسة على أن البلاغة بلاغة نص، لا بلاغة عبارة، وبلاغة خطاب، لا بلاغة جُمل؛ حيث قامت على مقاربة هذه المقدمة حِجَاجيًّا بوصفها خطابًا متواليًا من الجمل، يقوم على تقنيات تأثيرية تضافرت فيها الحِجج، وفق منظومة متسلسلة شكَّلت في مجملها آليات الإقناع والتأثير.

٩- تبيَّنَ من خلال تتبع حركية هذه الأساليب في هذه المقدمة بوصفها عتبة نصيّة أنّ علماءنا الأوائل الأماجد أدركوا أهمية مقدمة الكتاب، وخطورة شأنها، فصيَّرُوها لحظةَ إبداعٍ وتجل، تبوحُ فيها الذاتُ بمعاناتها، وتكشفُ عن تصوراتها، وفق منهج حجاجي رصين، لا يُفْلِتُ المتلقي حتى يسلمه إلى محطة القبول والإقناع.

وأما وصية الدراسة فهي توصي بمزيد من الدراسات البلاغية التي تقارب العتبات التراثية وخاصة المقدمات، فهي مادة تواصلية ثرية، وروض مُرْبِع يحتاج من يكشف عن أسرار جمالياته، وأدوات إبداعه.

والحمد لله أوَّلًا وآخِرًا، والصلاة والسلام على نبينا وسيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الأطهار، والتابعين لهم بإحسان.

ثبت المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

المصدر:

٢- المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، ت٧٩٢هـ، ت: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العالمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

المراجع:

٣- آليات الحجاج القرآني دراسة في نصوص الترغيب والترهيب، عبد الجليل العشراوي، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط١، ٢٠١٦م.

٤- الآليات الحجاجية في الخطاب الديني خطبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنموذجًا، حليمة مسعي، سياقات اللغة والدراسات البينية، ع٥، ٢٠١٧م.

٥- أساليب البيان والصورة القرآنية دراسة تحليلية لعلم البيان، د. محمد إبراهيم شادي، دار والي الإسلامية، المنصورة مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

٦- استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

٧- الاستعارة وبعدها الحجاجي في الخطاب الإقناعي، الساكر مسعودة، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، مج١٤، ع٢، ٢٠١٨م.

٨- أسرار البلاغة، الإمام عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ)، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط١، ١٤١٢هـ ١٩٩١م.

٩- الأسلوب الكنائي نشأته - تطوره - بلاغته، د. محمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م، (٨٧).

١٠- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، بديع الزمان سعيد النورسي، تح: إحسان قاسم الصالحي، تقديم د. محسن عبد الحميد، جامعة بغداد، ١٩٨٩م.
١١- الأعلام، خير الدين بن محمود الزركلي (ت١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.
١٢- الأفق الحجاجي في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، عمر بو قمرة، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط١، ٢٠١٧م.
١٣- الباتوس من الخطابة إلى تحليل الخطاب – من الاحتجاج بالعواطف إلى الاحتجاج للعواطف، حاتم عبيد، الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، مجموعة باحثين، إشراف حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط١، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.
١٤- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، عبد المتعال الصعيدي، ت١٣٨٣هـ، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١٧، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.
١٥- بغية الوعاة بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان، صيدا، د ط، د ت.
١٦- البعد التداولي في الخطاب الديني دراسة في ضوء النظرية الحجاجية، رحمونة بوغازي- سعيد بن عامر، مجلة الآداب واللغات، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، مج١٢، ع١، ٢٠٢٢م.
١٧- البعد الحجاجي للبديع في ضوء البلاغة الجديدة دراسة في خطاب الرسائل العباسية، عاشوري يمينة، عبد العليم بوفاتح، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، الجزائر، مج١٤، ع٢، ٢٠٢١م.

١٨- بلاغة الحجة في خطب الخلفاء الراشدين دراسة وصفية لنماذج خطابية، هناء حلاسة، مركز الكتاب الأكاديمي، عمَّان، الأردن، ط١، ٢٠١٦م.
١٩- بلاغة الدعاء بحث في المبادئ والسمات والوظائف، عبد الفضيل ادراوي، كنوز المعرفة، عمان، ط١، ٢٠١٨م.
٢٠- البناء الاسلوبي لبلاغة الدعاء في رسائل الجاحظ، حسن الطويل، مجلة أنساق، مج ٥، ع ١، ٢٠٢١م.
٢١- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ)، تح: فوزي عطوي، دار صعب – بيروت، ط١، ١٩٦٨م.
٢٢- تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ – ٨٠٨ هـ)، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.
٢٣- تحليل الخطاب المقدماتي مقدمة مغني اللبيب لابن هشام أنموذجًا، ليلى بايزيد، مجلة الأثر، ع٢٧، ٢٠١٦م.
٢٤- التعريفات، علي محمد الجرجاني(٨١٦هـ)، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، د ط، د ت.
٢٥- حاشية السيالكوتي على المطول، عبد الحكيم السيالكوتي، تح: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١
٢٦- الحجاج في البلاغة المعاصرة، محمد سالم الطلبة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.
٢٧- الحجاج في الخطابة مقاربة حجاجية لخطبة لهارون الرشيد، عبد الواحد السيد، ضمن كتاب الحجاج وتحليل الخطاب دراسات مهداة إلى الدكتور أبو بكر العزاوي، تنسيق: رشيد شجيع، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط ١، ٢٠١٧م.

٢٨- الحجاج في الخطابة النبوية، عبد الجليل العشراوي، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط١، ٢٠١٢م.
٢٩- الحجاج في المناظرة مقاربة حجاجية لمناظرة أبي سعيد السيرافي لمتَّى بن يونس، أحمد اتزكنرمت، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، مجموعة باحثين، إشراف حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط١، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.
٣٠- الحجاجيات اللسانية والمنهجية البنيوية، رشيد الراضي، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، مجموعة باحثين، إشراف حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط١، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.
٣١- حجاجية الأسلوب في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه، الزماني كمال، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط ١، ٢٠١٦م.
٣٢- حجاجية الإيقاع في خطب الحجاج بن يوسف الثقفي دينامية التوازيات التركيبية، كمال الزماني، مجلة التواصلية منشورات مخبر اللغة وفن التواصل بجامعة المدية، ع١٢، ٢٠١٨م.
٣٣- حجاجية التشبيه ودوره الإقناعي في الحديث النبوي الشريف، الجمعي حميدات، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، العام الثالث، ع١٥، ٢٠١٦م.
٣٤- حجاجية السجع والجناس في الخطاب المقدماتي، مقدمة المقدمة لابن خلدون أنموذجًا، كمال الزماني، مجلة دراسات، مج٧، ع٣، ٢٠١٨م.
٣٥- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني ت٣٩٢هـ، ت: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت.

٣٦- الخطابة، أرسطو، حققه وعلَّق عليه عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات الكويت، دار القلم بيروت،١٩٧٩م.
٣٧- الدر الفريد وبيت القصيد، محمد ايدمر، تح: كامل الجبوري، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠١٥م.
٣٨- دلائل الإعجاز، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
٣٩- دور المخاطب في إنتاج الخطاب الحجاجي، حسن المودن، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، مجموعة باحثين، إشراف حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.
٤٠- ديوان الإسلام، شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي (ت ١١٦٧هـ)، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١١هـ ١٩٩٠م.
٤١- ديوان المتنبي بشرح البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، د ط، ٢٠٠٧م.
٤٢- الروابط الحجاجية في الخطاب المقدماتي غريب الحديث للخطابي نموذجًا، ياسر رضوان، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، العام الثامن، ع٦٩، ٢٠٢١م.
٤٣- سر الفصاحة، الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي ت٤٦٦هـ، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، ١٣٨٩هـ – ١٩٦٩م.
٤٤- الشعر العربي الحديث بنياته وابدالاتها، محمد بنيس، دار توبقال، الدار البيضاء المغرب، ط٢، ٢٠٠١م.

٤٥- شعرية الفضاء في الرحلة الأندلسية، إبراهيم الحجري، دار النايا، دار محاكاة، دمشق، ط١، ٢٠١٢م.
٤٦- الصبغ البديعي في اللغة العربية، أحمد إبراهيم موسى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٩م.
٤٧- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣هـ)، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط ٤، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
٤٨- الصناعتين، (كتاب) الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، ت ٣٩٥هـ، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
٤٩- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، الإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني، ت٧٠٥هـ، تح: د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.
٥٠- عتبات النص التراثي مقاربة في عتبة المقدمة، سعيدة تومي، مجلة تاريخ العلوم، ع٩، ٢٠١٧م.
٥١- عيار الشعر، أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي(٣٢٢هـ)، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة.
٥٢- قضايا الشعرية، رومان ياكبسون، ترجمة: محمد الولي – مبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب ط١، ١٩٨٨م.
٥٣- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٥٣٨هـ)، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ط، د ت.
٥٤- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط١، د ت.

٥٥- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٨م.
٥٦- اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٦م.
٥٧- لماذا النص الموازي، جميل حمداوي، مجلة الكرمل، فلسطين، ع٨٨، ٢٠٠٦م.
٥٨- مبادئ تحليل الخطاب في التراث البلاغي العربي من خلال شروح التلخيص، محمود طلحة، كنوز المعرفة، عمان الأردن، ط١، ٢٠١٩م.
٥٩- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، ت ٦٣٧هـ، قدَّمه وعلَّق عليه د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، نهضة مصر، د ط، د ت.
٦٠- مدخل إلى عتبات النص دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، عبد الرزاق بلال، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ٢٠٠٠م.
٦١- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد، أبو الفتح العباسي (ت ٩٦٣هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، د ط، د ت.
٦٢- مفهوم مصطلح العتبات النصية، خالد سريان الحربي، فكر وإبداع، رابطة الأدب الحديث، ع١٣٠، ٢٠١٩م.
٦٣- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د ط، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
٦٤- مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، صمود حمادي، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب منوبة، تونس.

٦٥-من إشكاليات تطبيق المنهج الحجاجي على النصوص، حجاجية المفردة القرآنية نموذجًا، صابر الحباشة، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، مجموعة باحثين، إشراف حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط١، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

٦٦-منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني(٦٨٤هـ)، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن خوجة، دار الكتب الشرقية. د ط، د ت.

٦٧-نظرية الحجاج تطبيق على نثر ابن زيدون، عزيز لدية، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط١، ٢٠١٥م.